إلى شباب الصحوة

سقوط العلمانية
ونهاية إسرائيل

محمد شهدى

سقوط العلمانية
ونهاية إسرائيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة :٣٢ ، ٣٣] .

إهداء

إلى الزوجة الغالية : أم مسلم

رمز الوفاء والإخلاص

إلى فلذات الأكباد :

مسلم ، عمر ، بلال

المقدمة

العلمانية مذهب في الحكم والسياسة والأخلاق،وإن شئت فقل : هي دين جديد اعتنقته أوروبا بديلاً عن النصرانية يجعل الحياة قسمين:قسم لله،وهـو المتمثل في بعض الشعائر التعبدية في الكنيسـة وبعـض مظـاهر الأحـوال الشخصية، والقسم الآخر لقيصر يحكم فيه بما يشاء في السياسـة والحكـم والأخلاق والاقتصاد والدماء والأعراض والتعليم وكل شؤون الحياة الأخرى بما يراه أو بما يوافق هواه .

فإذا كان الدين يفرض على الحاكم الصدق والأمانة والعدل، فإن العلمانية تقول : إن السياسي الحق هو ذلك الذي يستطيع الوصول إلى أهدافه بشـتى الطرق والوسائل ، وأصبح المبدأ الميكافيلي (الغاية تبرر الوسيلة) هو الدين الجديد للسياسة .

وإذا كان الدين يقول: إن الاقتصاد يجب أن يقوم على المشاركة والتضامن وعدم استغلال حاجة الإنسان والكفاية لكل أحد في المجتمع وتـرك الغـش والتدليس والجشع والاحتكار والربا ، فإن العلمانيـة تقـوم علـى المنفعـة الشخصية والاستغلال والتدليس والربا والأنانية وحب الذات .

وإذا كان الدين يقوم الأخلاق حتى تسمو وترتفع وتنضبط بضوابط الدين فلا تتغير ولا تتلون،فإن العلمانية تقول : إن الأخلاق تتغير مـن مكـان إلى مكان ومن زمان إلى زمان،فما كان أخلاقياً في زمن قد لا يكون كذلك في زمن آخر ، فالنفاق في العلمانية قد يكون سياسة وحنكة وكياسة والشـرف

والعفة والعرض عادات قديمة التمسك بها تأخر ورجعية والانعتاق منها تقدم وحرية .

وإذا كان الدين يقول:إن القانون الذي يسير عليه الناس يجب أن يكون سياجاً يحافظ على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم ودمائهم،فإن العلمانية قد تقول : إن اللواط والزنا مسألة شخصية،بل قد تنظمها بقانون بحيث ترفع عنها الحرمة ، بل حتى الكراهة ،كما حدث في الغرب .

وهكذا في كل شؤون الحياة ، لا حكم للدين ولا لقيم السماء أن تحكم بين الناس أو أن تكون مرجعاً يعود إليه الناس في حياتهم ومعاشهم .

وإذا كانت العلمانية حين سادت في الغرب لم تجد مقاومة بل رحب بها الناس ، وتسللت إلى حياتهم تسللاً طبيعياً ،ورأى الناس في العلمانية انعتاقاً من دين لا يتلاءم مع الفطرة فإن العلمانية في بلاد المسلمين قد فرضت على الناس فرضاً بالحديد والنار ، فرضت العلمانية في الغرب من القاعدة العريضة للشعب ، أما في بلاد المسلمين فإن فرض العلمانية جاء من أعلى إلى أسفل ، من الطبقة الحاكمة التي نصبها الاستعمار قبل خروجه على الشعب وبقوة السلاح .

ولذلك فإن العلمانية مرفوضة في بلاد المسلمين ، ولابترك للناس حرية الاختيار إلا اختاروا الإسلام ودعاته وخاصة من الطبقة المثقفة التي اكتشفت خداعَ العلمانية وزيفها سواء بمفهومها الشرقي أو الغربي ، فأقبلوا على الإسلام رجالاً ونساء ،وهم الذين أراد لهم أعداء الله من تعليمهم التعليم العلماني أن يكونوا قواعد للعلمانية في بلاد المسلمين ، فأبى الله إلا أن يكون

هؤلاء المثقفون دعاة للإسلام وناصرين لدينه،حتى قال أحد العلمانيين :(لقد زرعنا العلمانية في الجامعة ، فأنبتت الإسلام) (١) .

ولا أدل على ذلك من اكتساح التيار الإسلامي لمعظم النقابات المهنية في مصر ونوادي هيئات التدريس واتحادات الطلاب .

وعندما أجريت الانتخابات في الجزائر كانت الطائفة المثقفة وراء الفوز الساحق لجبهة الإنقاذ الإسلامية على كل الأحزاب العلمانية مجتمعة ، وفي تركيا فاز حزب (الرفاه الإسلامي) في الانتخابات البلدية في معظم المدن الكبرى بالإضافة إلي العاصمة السياسية (أنقرة) والعاصمة الثقافية(اسطنبول) وغالبية المدن هم من المثقفين مما يدل دلالة واضحة وأكيدة على أن العلمانية وتنحية الدين في بلاد المسلمين ما هو إلا مرض عارض وعلة طارئة .

* * *

بعد سقوط الشيوعية وانهيار أحد أقطاب العالم المعاصر أعلنت الحرب على الإسلام في أقطار الدنيا وأنحاء المعمورة ، ففي كل مكان - تقريباً - يوجد فيه إسلام أو صحوة إسلامية فهى تقابل بحرب ضروس لا تعرف الهوادة أو الرحمة بل لا تعرف غير لغة الاستئصال والبتر ، وأعلن الغرب العلماني والصهيونية العالمية بصراحة ووضوح أن عدوها هو الإسلام ، وأنه هو العدو الجديد القديم وهو الخطر على الحضارة الغربية والقيم المادية ، بل

---

(١) جاء فى مذكرة سعد زغلول المنشورة يوم ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ بمناسبة الخطب التي ألقيت في افتتاح الجامعة المصرية تعقيباً على كلمات الخطباء ، وصفه للكلمة التى ألقاها أحمد زكي باشا بأنها كانت أثقل الكلمات على السمع،وأبعدها عن الموضوع وأفرغها عن حسن الذوق؛لأنه تكلم فيها عن الإسلام ومجده بأمور متكلفة ليس من اللياقة إلقاؤها في افتتاح جامعة لا دين لها إلا العلم .

لقد أعلن رئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين : أن الخطر الأول على دولة إسرائيل هى الأصولية الإسلامية ، ثم جاء بعدها خطر امتلاك العرب للسلاح النووى، ولذلك فإن الهدف الحقيقى والأساسي للسلام مع اليهود من الأنظمة العلمانية هو محاصرة الصحوة الإسلامية وتطويقها تمهيداً للقضاء عليها ، فبدلاً من أن تواجه الجيوش اليهود ستستدير لمواجهة الصحوة الإسلامية.

إن مجرد وجود الإسلام النظيف خطر على القيم الهابطة والمادية الطاغية وحضارة الغرب المستغلة ، ولذلك فإن الغرب لا يسمح لهذا المارد بالعودة ؛ لأن التعايش معه مستحيل ، وكأن لسان حالهم يقول ما قاله المنحرفون من قوم لوط ﴿ أخرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٨٣] ، فكل فكر شاذ أو عقيدة منحرفة - حتى ولو كانت من النوع الذى يعبد الأبقار والأصنام مقبول من الحضارة الغربية ويمكن التعايش معه إلا الإسلام.

والغرب على رغم الاختلافات العرقية والمذهبية بينهم والتي كانت سبباً في حروب مدمرة بينهم - مثل الحرب العالمية الأولى والثانية والتي قتل فيها عشرات الملايين - لا يتفقون في شيء اتفاقهم في حرب الإسلام ، فإذا كانت الحرب على الإسلام اتفقوا واتحدوا وتحالفوا ، ولا ننسى الحروب الصليبية التي كان يأتي فيها ملوك أوروبا مجتمعين ، ملك فرنسا ، ملك الإنجليز ، ملك الألمان وغيرهم - على رغم الخلاف بينهم - لغزو بلاد الإسلام وكذلك وقوف الغرب كله خلف اليهود لحرب العرب والمسلمين، على رغم الخلاف الهائل بين اليهودية والنصرانية وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٢٠]،﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ الآية [البقرة : ٢١٧]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الآية [البقرة : ١٠٩] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ

دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ الآية[آل عمران:١١٩،١١٨] .

إن الغرب يعتبر أن عودة الإسلام تعنى تلقائياً أفول الحضارة الغربية وذبولها ودخولها في عالم الاحتضار، فإن كان ولابد ، فلا مانع من أن يكون الإسلام دروشةً أو عاطفةً أو مجرد عبادات تؤدى وصلوات تقام،ولكن الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ إسلام التحرر والاستقلال ، إسلام العزة والكرمة، إسلام الوحدة والتجمع ، الإسلام الذي يعيد الانسجام بين المادة والروح،ويربط الإنسان التائه بخالقه ومولاه، ويعيد إليه القيم الفاضلة والمبادئ الراشدة بعيداً عن الشذوذ والانحراف أو الاستغلال والأنانية، الإسلام الذي يضبط النزوات ويسمو بها ويضعها في إطارها الصحيح بعيداً عن الأهواء المتقلبة والشهوات المضطربة،الإسلام الذي يرفض كل صور العبودية لغير الله، فإن هذا الإسلام - لدي الغرب - مرفوض ، مرفوض ، مرفوض .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ،،

في٢٦/١/١٤١٦هـ

ج٠م٠ع قرية الاتحاد – المنزلة – دقهلية

أبو مسلم

محمد شهدى



الفصل الأول

بداية العلمانية

بداية العلمانية

بدأت العلمانية في أوروبا في القرون الوسطى مع بذور العلم الأولى عندما وقفت الكنيسة بكل قوة وعنف أمام أي محاولة للبحث العلمي المجرد .

وفي الحقيقة فإن معنى العلمانية كان موجوداً في الوثنيات القديمة عند الروم واليونان وغيرهم ، حيث كانوا يعتقدون أن آلهتهم معزولة وأنها لا تعنى بشؤون العالم .

يقول الراهب أوغسطين :

إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بهم في دور التمثيل، ليس هذا فحسب بل إن إبيقور (ق٤) قبل الميلاد ليعلن على الملأ دعوة علمانية صريحة فهو يقول :

إن الآلهة لا يشغلون أنفسهم بأمور بني البشر ، نعم إنهم موجودون لأنهم يظهرون من آن لآخر للأشخاص ، بيد أن مسائل العالم الأرضي لا تعنيهم ، وما من علامة تدل على أنهم يعنون بعقاب الآثم وإثابة الصالح ، أيمكن اعتقاد تدخلهم هذا مع ما نراه في العالم ؟!) (١) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : الندوي .

ويقول جوبيير :

((إن الإلهة تعيش بعيدا عن العالم ولا يهتمون إلا بشـؤونهم فـلا تعنـيهم أمورنا إنهم يعيشون حكماء سعداء ويعظوننا بهذا المثال الذي يجب أن نسير عليه وعلى منواله ، فلنعظهم كمثل عليا يقتدى بها غير أنه يجب علينا ألا نشغل أنفسنا بما يريدونه منا ، فإنهم لا يريدون منا شيئاً هم لا يعيروننا بالاً ، فلنفعل نحوهم كما يفعلون نحونا)) [1] .

هكذا كان تصور الرومان وغيرهم عن الآلهة ، فإنها تخلق ثم تتخلى بعـد ذلك عما خلقت فلا تهتم بالخلق والعالم الأرضي .

ومع أن هذا ليس موضوع بحثنا، إلا أنه يبين أن الشعوب الأوروبية كانت مهيأة لأن تتقبل هذه الأفكار حتى بعد إيمانها بالنصرانية ، التي هي في الأصل رسالة سماوية جاءت لتربط الأرض بالسماء والخالق بالمخلوق .

إن الله تعالي في رسالة عيسى – عليه السلام – كما في رسالة محمـد – صلى الله عليه وسلم إنما أرسله ليدل الناس على ربهم وخالقهم فهو سبحانه لم يخلق ويتخلى عن خلقه وإنما الخلق والأمر له سبحانه يقول تعالى :

﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

ويقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾

[الزخرف: ٨٤]

---

(١) العلمانية : سفر الحوالي ، ص٥٥ .

هذه هي رسالة عيسى – عليه السلام – وهي رسالة كل نبي ، ولكن الكنسية انحرفت عن نهج المسيح وتركت رسالته واختلطت تعاليمها بوثنية قسطنطين الملك الروماني الوثني ، وهو رجل وثني ظل وثنياً إلى أن عمد وهو على فراش الموت .

يقول **درابر** الأمريكي في كتابه (الدين والعلم) : ((ودخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ، و لم يكونوا يحفلون بأمر الدين و لم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره في الظلم والفجور و لم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره .

وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبيين المتنافسين النصراني والوثني أن يوحد بينهما ، حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بعقائد الوثنية القديمة وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها)) (١) .

يقول الأستاذ محمد قطب :

وحين أصبح للكنيسة سلطان سياسي إلى جانب السلطان الروحي بدأ الطغيان ففرضوا سلطانهم على الأباطرة وأصدر البابا نقولا الأول بياناً قال فيه :

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : الندوي .

((إن ابن الله أنشأ للكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لهـــا ، وإن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس في مسلسل مستمر ؛ ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن يكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاماً كانوا أو محكومين)) .

وفرضوا لأنفسهم عشور أموال الناس ، فضلاً عن تشغيل الناس ســخرة في حقول الكنيسة التي سرعان ما أصبحت في ظل وضعها الجديد من ذوات الإقطاع ، وفضلاً عن الإتاوات المفروضة على الأغنياء والوصايا المـــأخوذة بسيف الحياء حين يستدعي الكاهن لكتابة الوصية قبل الموت .

ثم فرضوا سلطاناً فكرياً رهيباً يحجر على العقـــول أن تفكـــر إلا بـــإذن الكنيسة ، وفي الحدود التي تسمح بها الكنيسة .

ولقد كان هذا بالنسبة للكنيسة ضرورة لازمة ومنطقية مع التحريف الذي حدث في الدين، فالإله الواحد الذي أصبح ثلاثة ، والثلاثة الذين هم في ذات الوقت واحد،والعشاء الرباني الذي تتحول فيه كسرة الخبز إلى جسد المسيح وجرعة الخمر إلى دم المسيح وتتحد به الصلة بين العبد والرب حـــين يأكـــل الإنسان جسد المسيح ويشرب من دمه ، وكرسي الاعتراف الذي يصعد منه غفران الكاهن للذنوب إلى الرب فيعتمده في عليائه .

وصك الغفران الذي يكتبه الكاهن في الأرض ، فيدخل الإنسان الجنة في الآخرة بغير حساب ، إلى عشرات من أمثال تلك الأســـرار الـــتي هـــي في حقيقتها أساطير ، كلها أمور لا يستطيع العقل أن يدركها أو أن يتدبرها ، فماذا لو عمل الناس عقولهم فاكتشفت عقولهم أن كل ما يقال لهـــم باســـم العقيدة كلام لا يثبت للتمحيص ؟!

ماذا سيبقى للكنيسة حينئذ من سلطان على الناس ؟ الحل الأمثل أن تحجر الكنيسة على العقل وأن تعتبر التفكير هرطقة تفضي إلى إهدار الدم في الدنيا والحرمان من الغفران في الآخرة .

ثم لما بدأت العلوم تتسرب إلى أوروبا من العالم الإسلامي عن طريق الترجمة ، وحدث ما يمكن أن نسميه غزواً فكرياً إسلامياً - خاصة بعد هزيمة النصرانية أمام المسلمين في الحروب الصليبية - جن جنون الكنيسة ففرضت حجراً على العلم ، وأهدرت دم كل من يقول يومئذ بكروية الأرض أو أنها ليست مركز الكون ، وهو العلم الذي نقله علماء النصارى الأوائل من مؤلفات علماء المسلمين.

ثم لما زاد تشكك النصارى في سلامة العقيدة التي تلزمهم بها الكنيسة ويحجر عليهم التفكير في نشأتها تحت شعار (آمن ولا تناقش) ، وزاد تمرد المفكرين على سلطان الكنيسة الطاغي ، ابتدعت الكنيسة آخر ما رمت به الناس من فنون الاضطهاد ، وهو محاكم التفتيش بكل بشاعتها التي تقشعر لها الأبدان .

يقول (ولز) في معالم تاريخ الإنسانية :

((شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة ، هي محكمة التفتيش البابوية ، وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنساني بالنار والعذاب .

وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادراً بالملاحدة والكفار، فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مائة ساحة من ساحات الأسواق في أوروبا ، ليراقبوا أجسام أعدائها - وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم - تحترق بالنار ، وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة وتحترق وتخمد معهم في نفس الوقت الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية رماداً تذروه الرياح ، رأى آباء الكنيسة والملوك أن المصلحة المشتركة لهما توجب التعاون،وكان الضحية هم عامة الشعب الذين كان عليهم أن يؤدوا ضريبة الذل والعبودية للاثنين معاً ، ولكن كان السلطان الأعظم لرجال الدين حتى على الملوك والسلاطين فضلاً عن عامة الناس ، والويل للملك الذي يغضب عليه البابا أو تحرمه الكنيسة)) .

كان رأى الكنيسة حتى في المسائل العلمية البحتة لا يناقش فضلاً عن أن يرد .

فالأرض ليست كروية ، والأرض محور الكون لأن المسيح تجسد عليها ، أما عن كروية الأرض وسكن جانبها الآخر **فقد قالت الكنيسة في ذلك :**

((إن من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل ، وقالت : إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الجانب الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم)) (١) .

---

(١) العلمانية لسفر الحوالي .

وحددت الكنيسة خلق الأرض والطوفان بسنوات معينة ، بل حددوا قيام الساعة وكان سنة ١٠٠٠ من ميلاد المسيح ، وقالوا : إن الأرض ثابتة لا تتحرك وما عليها كذلك ، وكان ذلك من المسلمات عند الكنيسة التي يكفر مخالفها ويكون مصيره الحرق .

ومن سوء حظ الكنيسة أن النظريات الكونية والعلوم التطبيقية الحديثة أثبتت الأيام والتجارب صحتها ، ثم جاءت بعدها النظريات الإنسانية كنظرية (**دارون**) و (**فرويد**) والنظريات الملحدة والعلمانية ، فلما اصطدمت الكنيسة مع الصحيح وثبت خطؤها خسرت معركتها مع الباطل .

إن النظرية التي هزت الكنيسة لأول مرة هي نظرية (**كوبرنيق**) سنة ١٥٤٣م الفلكية .

فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة ، وكانت فلسفتها تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون وتقول : إن الأجرام السماوية كافة تدور حولها .

فلما ظهر (**كوبرنيق**) بنظريته القائلة عكس ذلك ، كان جديراً بأن يقع في قبضة محاكم التفتيش ، ولم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً ، بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل فلم تعط المحكمة فرصه لعقوبته ، إلا أن الكنيسة حرمت كتابه (حركات الأجرام السماوية) ومنعت تداوله وقالت : إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل .

وظنت الكنيسة أن أمر هذه النظرية قد انتهى ولكن رجلاً آخر هو (**جردانو برونو**) بعث النظرية بعد وفاة صاحبها ، فقبضت عليه محكمة

التفتيش وزجت به في السجن ست سنوات ، فلما أصر على رأيه أحرقته سنة ١٦٠٠م وذرت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن يعتبر،وبعد موته ببضع سنوات كان (**جاليليو**) قد توصل إلى صنع التلسكوب فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً ، فكان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته وقضي عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات ، ولما خشى جاليليو على حياته أن تنتهي بالطريق الذى انتهى بها (**برونو**) أعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع أمام رئيس المحكمة قائلاً :

((أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري راكع أمام فخامتكم والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي ، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)) ! .

وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل (١) .

كل هذا جعل رجلاً مثل (**فولتير**) يقول بسخرية عن علم الكنيسة : ((من الواضح أن الله لم يكن قوياً في الجغرافيا)) (٢) .

(١ ، ٢) العلمانية لسفر الحوالي ، ص ١٥٠ .

قاومت الكنيسة كل محاوله للتجديد وإن كانت نافعة ، فقد كفـرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليـل ليلاً والنهار نهاراً ، وهو بمخترعه يريد أن يغير مشيئة الخالق فيجعل الليـل نهاراً (١) .

هكذا وقفت الكنيسة ضد سنن الله في الكون وأمـام الحقـائق العلميـة الصحيحة بقوة وعنف شديد ، ولكن مع ظهور العلم وثبوت النظريات التي قالت الكنيسة بخلافها وتململ العلماء والباحثين وظهور فائـدة علـومهم في مقابل ظلم الكنيسة وجمودها ، بدأ الناس يميلون شيئاً فشيئاً إلى جانب العلوم والنظريات الحديثة .

وكانت معلومات الكنيسة الخاطئة عن الكون والحياة - والتي هي ليست وحياً - سبباً في رفض الناس لكل ما عند الكنيسة من حقائق دينيـة وغـير دينية، وطالبوا بأن تتنحى الكنيسة عن شؤون الحياة وبأن يحكم العلم والعقل على الدين بعد أن ثبت صحة الأول وخطأ الثاني .

واستمر هذا الوضع قروناً بين شد وجذب وصراع ودماء ومحاكم تفتيش، تفتش عما في الضمائر وما تكنه الصدور .

هذا باختصار صراع الكنيسة مع العلم ، ومن أراد المزيد فليراجع رسالة الماجستير لسفر الحوالي .

---

(١) العلمانية لسفر الحوالي ، ص ١٥٨.

وكان النصر في النهاية حليفاً للعلم ضد الجهل والعقل ضد الهوى ، وكان ذروة ذلك بالثورة الفرنسية التي هي رائدة العلمانية في العصر الحديث ، فقد جاءت والناس في بؤس إلا طائفتين :رجال الدين والملوك والأمراء المتحالفين ، حيث كانوا ينعمون بكل شيء ، ووقفت الكنيسة تساندهم ، فانقلب الناس على الاثنين معاً ، وكان شعار الثورة : ((اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)) .

وانتصرت الثورة،وحوصرت الكنيسة،وصودرت أملاكها،وسرح الرهبان والقساوسة،وحلت الجمعيات الدينية ،وألغيت امتيازاتها،وحورب الدين علناً،وأصبح رجل الدين تابعاً وموظفاً للدولة بعد أن كان هو الدولة ،واندس اليهود في صفوف الثورة ورفعوا الشعار الشهير : (حرية ، إخاء ، مساواة)،ورددته الجماهير الغاضبة دون وعي .

فالمقصود بالحرية : هو الإباحية وتحطيم القيود الأخلاقية وحرية العقيدة ؛ **وقصدوا بالإخاء والمساواة :** تحطيم الحواجز النفسية بينهم – أي اليهود وغيرهم من الشعوب – بغض النظر عن الدين ، لكي يسهل عليهم بعد ذلك الوصول إلى المناصب العليا ، وتنفيذ مخططاتهم للسيطرة والإفساد .

ألغي دور الكنيسة،وحوصر نشاطها، وأصبح ينظر إلى الدين ورجاله على أنهم رمز للتخلف والجمود،وحدد نشاط الكنيسة في المسائل التعبدية فقط وداخل جدران المعبد لا يخرج عنه، أما مسائل الحكم والتشريع والسياسة والاقتصاد والأخلاق والتعليم وغيرها فلا شأن للكنيسة أو الدين به.

كل هذا حدث في الوقت الذي كان المسلمون لا يعرفون تعارضاً بين العلم والدين ، بل أيقنوا أن الإسلام يدعو إلى العلم وإلى المعرفة بحقائق الحياة،وما الإسلام إلا انطلاقة في هذا المجال يوم أن يكون حياً طرياً في حياة المسلمين .

وكانت الأندلس والمراكز الإسلامية الأخرى هي المعبر التي عبرت منها العلوم إلى أوروبا ، وكان الأوروبيون يفدون إلى بلاد المسلمين ومراكز العلم فيها ؛ لينهلوا من المعارف المختلفة،وتحدثنا كتب التاريخ عن هؤلاء الطلاب أنهم كانوا يفدون إلى بلادهم ويفتخرون أنهم تعلموا في بلاد المسلمين،وكانوا يخلطون لغتهم ببعض العربية كما يفعل بعض المسلمين اليوم عندما يخلطون العربية ببعض الإنجليزية عندما افتتنوا بحضارة الغرب .

لقد كانت الكنيسة تحذر هؤلاء الشباب الذين خلطوا لغتهم بالعربية ، تحذرهم بالطرد والإبعاد ، بل إن التاريخ ليحدثنا: أن هارون الرشيد الحاكم المسلم أرسل إلى الإمبراطور (شارلمان) بساعة أهداها إليه ، ففزع الإمبراطور وحاشيته ؛ ظانين أن بها قوى خفية من الجن والشياطين ، وذلك لما رأوا عقاربها تتحرك دون أن تلمسها يد .

ويحكي ابن كثير في تاريخه عن عظمة المسجد الأموى : أن الدنيا لم يكن فيها أحسن منه،حيث أتى إلى دمشق جماعة من بلاد الروم رسلاً من عند ملوكهم ، فلما دخلوا دمشق ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر والزخرفة التي لم يسمع بمثلها صعق كبيرهم ، وخر مغشياً عليه فحملوه إلى منزلهم ، فبقى أياماً مريضاً، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت

أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدنهم تكون أقصر من هذا .

هذه هي الظروف التي مر بها الغرب ، وهذه هي تجربته مع الدين .

يقول الأستاذ محمد قطب :

لقد تحول الدين على يد الكنيسة إلى عامل معوق عن الحياة مضاد للعلم والحضارة والتقدم والرقي ، محقر للإنسان ونزعاته الحيوية ، مهمل للحياة الدنيا يوهم العمل على خلاص الروح والتهيؤ لملكوت الله في الآخرة .

ينسب للمسيح عليه السلام أنه قال : ((إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك منك عضو واحد من أن يلقى بدنك في النار)) ، وأنه قال : ((من أراد الملكوت فليترك ماله وأهله وليتبعني ، ومن أراد الملكوت فليحمل صليبه وليتبعني)) .

وكلها دعوة للزهد والانقطاع عن الدنيا ، وهذا هو ما فهمه النصارى فتركوا الدنيا ، وعكفوا في البيع والصوامع رهباناً منقطعين عن كل شيء إلا لما يعتقدون أنه عبادة الله .

إذا كان مجرد التفكير والبحث في الدنيا والكون يعتبر عندهم زندقة ومروقاً عن تعاليم المسيح،وأن مجرد تطوير الحياة وتحسينها يعتبر خروجاً من الملكوت ، وأن دراسة ظواهر الطبيعة ومراقبة المخلوقات والنظر في قوانين الكون سيئة ومروق، وأن الاستجابة لدوافع الجسد ونشاطه الفكري خطيئة .

إذا الذي فهمه الأوروبي عن الدين :

- أنه يهمل الحياة ولا ينشغل إلا بالآخرة فقط .

- أن الدين يحتقر الجسد ونزواته ونشاطه الفكري .

- أن الدين يحارب العلم ويرضى بالجمود .

- أن الدين يرفض الحركة والتطور ويؤمن بالثبات المطلق .

- أن الدين يحجر على العقل ولا يدعه يفكر ؛ لأنه إذا فكر ضل وزاغ.

هذا هو ما فهمه الغربي عـــن الدين ، فهل فهم المسلمون الإسلام هـــذا الفهم ، أو مروا بنفس التجربة ؟

إن التاريخ يشهد أنه ما من مرة فهم المسلمون دينهم فهمـــاً صـــحيحاً وطبقوه في واقع الحياة والناس إلا وشهدوا بعدها انطلاقة كبرى ، وما مـــن مرة غيب الإسلام إلا وتقهقروا وتخلفوا .

إن فخر المسلمين ومجدهم حتى اليوم هو يوم أن كان الإسلام حياً طرياً ، وما تقهقر المسلمون إلا بعد أن تخلوا عن رسالتهم وانكمش الدين في حياتهم، يومها أصبحوا كالأيتام على موائد اللئام .

- هل فهم المسلمون من دينهم استقذار دوافع الجسد الفطرية واعتـــزال النساء على أساس أنهم شياطين كما يقول آباء الكنيسة ؟

أم أن كتاهم يقول لهم :

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاع﴾ [النساء : ٣]، ورسولهم صلي الله عليه وسلم يقول لمن أراد أن يعتزل النساء : " فمن رغب عن سنتي فليس مني " .

ويقول عليه الصلاة والسلام :"وفي بضع أحدكم صدقة "، فيقول الرجل: أيأتي أحدنا شهوته يا رسول الله ، ويكون له أجر ؟ قال : "نعم ، أرأيت إن وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟" قال : نعم ، فقال الرسول ﷺ: " كذلك إن وضعها في حلال يكون له أجر " . (حديث صحيح) .

ويقول عليه السلام : " لا يكرمهن إلا كريم ..." .

هل فهم المسلمون من دينهم أنه يقعدهم عن البحث والتأمل والنظر في قوانين الكون والحياة ؟وكتاهم يقول لهم ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الآية [الغاشية : ١٧ – ٢٠] .

ويقول لهم : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[البقرة : ١٦٤]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠].ورسولنا ﷺ يقول فيها : " ويل لمن قرأها ولم يتدبرها " . ويقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

– هل فهم المسلمون من دينهم أنه يقعدهم عن طلب العلم النافع ، وكتابهم يقول لهم في أول سورة نزلت : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ – ٥] .

ويقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ويعلمهم أن من شروط الاستخلاف والحكم ما ذكره على لسان نبي من أنبيائه وهو يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥]. فشرط الاستخلاف والحكم بين الناس هو العلم والأمانة ، ورسولهم صلي الله عليه وسلم يجعل فداء المشركين في بدر أن يعلموا المسلمين القراءة والكتابة ، بل إنه عليه السلام يأمر بعض صحابته أن يتعلم لغات غير العربية .

– هل فهم المسلمون من دينهم أنه يأمرهم بالرهبنة وعدم الأخذ بأسباب القوة ؟وكتابهم يقول لهم : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، ومعلوم أن القوة تشمل قوة الاقتصاد والإعداد والتنظيم وقوة العقيدة بالإضافة إلى القوة العسكرية .

ورسولهم ﷺ يقول لهم : " ارموا واركبوا ، ولئن ترموا أحب إلى من أن تركبوا " ، ويقول لهم : " ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى " ثلاث مرات ، ويأتي العصر الحديث وتكون قوة الجيوش في الرمي .

ويقول عليه الصلاة والسلام : " المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف... " الحديث .

هل فهم المسلمون من دينهم أنه يأمرهم باعتزال الحياة وتحريم الطيبات وعدم الاستمتاع بما فيها من حلال؟وكتابهم يقول لهم : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ويقول تعالى – لمن آتاه الله المال :﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

ويقول رسولهم ﷺ:" كل ما شئت ما أخطئتك خصلتان سرف ومخيلة " .

– هل فهم المسلمون من دينهم أنه يعطل العقل أو يحجر عليه ؟ وكتابهم يأمرهم أن يحركوا عقولهم وألا يعطلوها ، وأن يكون إيمانهم مبنياً على الفهم والوعي ، حتى في حقائق الإيمان الكبرى ، يناقش المشككين فيها بأسلوب عقلي ويقيم عليهم الحجة التى تسكتهم فلا يملكون بعدها إلا لي الرؤوس .

فعن حقيقة الإيمان بالله يقول للجاحدين المتشككين : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

هل يستطيع أحد من الناس مهما كانت مترلته فى العلم والمعرفة ، أو الجدال والسفسطة أن يجيب على هذا السؤال بغير الحقيقة ؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ ﴾.

وتدور مناظرة بين موسى عليه السلام وبين إمام الملحدين فى عصره وبعد عصره فرعون – لعنه الله – فيفحمه ويسكته ، ولا يكون منه إلا البطش والتنكيل رداً على الحجة والبرهان :﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه : ٤٩ – ٥٦] .

وهذا ملحد آخر يحاج إبراهيم – عليه السلام – في ربه ، فيدخل في مناظرة مع النمرود اللعين قوامها الحجة والبرهان ونتيجتها هتان وخزى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وهو لم يحي ويميت ولكنه قتل ، والفرق كبير بين القتل والإحياء ، ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يرد أن يدخل معه فى جدال ، إنما أراد الحجة المخرسة .

إن الحق لا تنقصه الأدلة والبراهين ولكن الملحدين والزنادقة هم الذين ينقصهم عقول تفهم وأعين ترى : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠] .

يقول سبحانه : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية [إبراهيم : ١٠] .

وعن الوحدانية يقول ويخاطب أهل الشرك :﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] .

ويقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

[يوسف : ٣٩]

ويقول تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد : ١٦] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾

[النحل: ١٦]

وعـــن البعث والنشور يقول للمرتاب الذي أنكـــر قـــدرة الله علـــى البعث بالعظـــم البالي :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] .

ويرد سبحانه عمن استبعد البعث والنشور رداً يفحمه ويسكته ولا يملك بعده إلا لي الرؤوس: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُـلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُـلْ عَسَـى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [الإسراء : ٤٩ - ٥١] .

فمن يملك أن يرد الجواب إلا بالهروب والمراوغة : ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّـذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ .

ويقول سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الـروم : ٢٧] ، فلـو فرض وكـان هناك صعوبة في الخلق الأول لكانت الإعادة الثانيـة أسـهل وأهون .

وعن ضرورة أن يكون هناك جزاء لمن استقام وأصلح وعقاب لمن أساء وأفسد يقول سبحانه مخاطباً العقول :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

[القلم : ٣٥ ، ٣٦]

ويقول تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٦] .

ويقيم الدليل على الرسول وأنه يجب أن يكون بشراً ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء : ١٥] ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ [القصص : ٥٩] .

فالعذاب لا يقع على المخالف عقلاً وشرعاً حتى يبعث الله الرسول الذي يبلغ عن ربه .

ثم إن هذا الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليه حتى يألفه ويفهم عنه ويقتدي به ، يقول عز وجل :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾

[الإسراء : ٩٤ ، ٩٥]

ويقول سبحانه :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩].

كل هذه أدلة على إثبات الحقائق الكبرى في الدين بواسطة الفهم والعقل والتدبر، فالمجنون والمعتوه والذى فقد عقله لا تجرى عليه الأحكام ولا يكلف بإيمان إنما يكلف أولو الألباب . إن الله تعالى لا يقبل إيمان أحد أو إسلامه إلا إذا كان قائماً على الفهم والعقل والإقناع ، فإن أسلم وهو غير مقتنع لم يقبل منه ، وإن أسلم مكرها لا يقبل منه ، وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] فالذي يدخل الدين كارهاً بغير اقتناع وعقل لا يقبل منه إذا لا معنى للإكراه .

ولكن ما الذي حدث ؟ لماذا تأخرنا وتقدموا ؟ لماذا تخلفنا نحن المسلمين إذا كان الإسلام يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة في كل شيء ، ويحث على العلم وطلبه فلماذا حدث ما حدث ؟

أقول : جرت علينا سنن الله التي لا تحابي أحداً على أحد ولا تتخلف إذا تخلفت أسباب الاستخلاف ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] فنحـــن أمة لها رسالة في الحياة : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فإذا تخلفنا وتقاعسنا عن أداء رسالتنا ، تخلى نصر الله عنا ، ووكلنـــا إلى أنفسنا وأصابنا الذل والهوان .

خرج عمر بن الخطاب – وهو أمير المؤمنين – إلى الشام ومعه أبو عبيدة ابن الجراح – رضى الله عنهم – فأتوا على مخاضة ،وعمر على ناقة له فـــترل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقة وأخذ بزمام ناقته فخاض ،فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا ؟! ما يسرنى أن أهل البلد استشـــرفوك ، فقال : أوه ، لو يقول هذا غيرك أبا عبيدة خلعته نكالاً لأمة محمد،إنا كنا أذل الناس فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله .

الذي حدث أنه بعد أن فتحت الدنيا أبوابها للدين الجديد (الإســـلام) ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانهارت الامبراطوريـــات أمـــام زحـــف الإسلام وقوة عقيدته ، وغلب منطق الإسلام على كل الحضارات الموجـــودة بسبب إخلاص المسلمين لربهم ولدينهم ، وبسبب اســـتقامتهم واعتـــزازهم بدينهم ، ثم بسبب انطلاقهم في أرض الله بأسباب النصر من قوة العقيدة وقوة الرابطة وقوة السلاح مع استقامة وزهد وصدق ، حتى أن الرهبان لما رأوهم قالوا : ما الذين صحبوا عيسى بأفضل من هؤلاء .

تتابعت الأجيال يحملون رسالة الإسلام العظيمة وينشرونها في الآفــاق ، ويوسعون رقعة الإسلام ، ويحررون الشعوب من العبودية لغير الله ، ورغم أن الشيطان كان قد نزغ بينهم ، ورغم أن الأيدى الخفية الخبيثة الـــتى كانـــت تعمل للإفساد وتحاول تمزيق الصفوف إلا أن قوة الإسلام واندفاعه كانـــت أكبر ، واستمرت الفتوحات لم تتوقف،ومد الإسلام كذلك لم يتوقف حـــتى وصلت الفتوح إلى بلاد الهند،وأقيمت للمسلمين فيها دوله قويـــة وكســـر صنمها الأعظم ، ووصلت إلى الصين وساومهم ملكهم على مـــال يحمـــل للمسلمين على أن يرجعوا عنهم ،وفي الغرب كانت الفتوح قد عـــبرت إلى أوروبا ونشأت للمسلمين فيها حضارة ، وقصة هارون الرشيد حين خاطب السحابة عندما نظر إليها بكبرياء المسلم قائلاً : أمطرى حيث شئت فسوف يأتيني خراجك ، معروفة .

وقصة المرأة التي استغاثت بالمعتصم مشهورة ، إذ جهز جيشاً وخلصـــها من أيدي الكفار كريمة ، وأذل من آذى امرأة مسلمة واحدة .

ثم ما الذي حدث بعد هذه الانطلاقة الكبرى ؟

الذي حدث أن ركن المسلمون إلى الدنيا ونسوا رســـالتهم ، وبـــدؤوا يستمتعون بما جلبته لهم الفتوحات من مغانم وخيرات ، وانفتحت الدنيا لهـــم فتنافسوا فيها وركنوا إلى مجد الآباء وفتوحات الأجداد وبطولات الأوائـــل ، وظنوا أن الأمر سيدوم على ذلك ، فهم لم يحافظوا علي الإســـلام بأركانـــه وشعائره ، في الوقت الذي أخذ فيه الأوروبيون بذور العلوم التجريبية بعـــد

احتكاكهم بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وعن طريق اتصالهم المباشر بالأنــدلس ، وطوروها وانطلقوا بها ، وصدقت فينا نبوءة الرسول ﷺ حين قال : " ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتتنافسوا فيها كما تنافس الذين من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم" .

فالفتوح ولدت خيرات وسعة عيش ، والخيرات ولدت تنافس ، والتنافس ولد أحقاداً ونزاعات واختلافاً ، وكل ذلك ولد إهمالا ونسياناً للأمانة .

وكذلك ولدت الفتوح والخيرات التي انصبت على المسلمين رفاهية ودعة وسكوناً وحباً للراحة وترك الجهاد والتضحية ، فحدث ما أخبر به الرســول ﷺ حين قال : "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلــة علــى قصعتها " فقال رجل - ظن أن تداعى الأمم علينا وافتراسهم لنــا بســبب قلتنا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال الصادق المصدق : " إنكــم يومئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ، ينزع الله المهابة من قلوب أعــدائكم ويضع في قلوبكم الوهن " ، قالوا ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : "حــب الدنيا وكراهية الموت " (حديث صحيح) .

إن الهلكة كان يفسرها صحابة رسول الله على أنها ترك الجهاد والإنفاق في سبيل الله ، والتضحية ، فلو تركنا الجهاد والإنفاق في سبيل الله لطمع فينا العدو فكان ذلك سبب هلاكنا وذلتنا وهو ما حدث .

وهذا أبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – يرى رجلاً من المسلمين يـدخل في صفوف المشركين وحده فيقاتلهم حتى يقتل ، فيقول بعض القـوم : ألقـى بنفسه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ، وإنها نزلت فينا معشر الأنصار، لما عز الإسلام ودخل النـاس في دين الله أفواجاً وكنا أصحـاب زروع وتجارة فقال بعضنا لـبعض : إن الله قـد أعز الإسلام ودخـل الناس فيه وإنه قد آن الأوان لأن نصـلح مـن زراعتنا وتجارتنا التي أهملناها بسبـب الغزو والجهاد ، فنزل قـول الله تعالى فينا : ﴿وَأَنْفِقُوا فِـي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، فكان الهلاك هو ترك الإنفاق وترك الجهاد في سبيل الله .

إن الله تعالى لا يحابي أحداً،فمن قام بما فرض الله وأوجبه من طاعته وطاعة رسوله فاز في الدنيا والآخرة،ومن تمرد وعصى كان مصيره ما نراه لأمتنا من ضياع وهوان .

لقد تساءل المسلمون عما حدث لهم في أحد،حيث قتل سـبعون،وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عـم رسـول الله ﷺ ، وفوق ذلك يصاب رسول الله ويشج رأسه وتكسر رباعيته،وشق ذلك على صحابة رسول الله وتساءلوا :كيف حدثت الهزيمة ونحن المؤمنون المسـلمون ومعنا نبينا ؟

فكـــان الجـــواب مـــن اللـــه توجيهاً وتعليـــماً : ﴿ أَوَلَمَّـــا أَصَـــابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَـــدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّـــى هَـــذَا قُـــلْ هُـــوَ مِـــنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمـــران : ١٦٥] ، فالهزيمة كان سببها عصيانهم لأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بألا يبرحوا أماكنهم .

وإذا كانت هذه المعصية يترتب عليها هذه الخسائر الجسيمة،فما بالك بأمة ائتمنها الله على وحيه وأنزل لها شرعاً مفصلاً،ومنهجاً كاملاً وعد من تمسك به ألا يضل فى الدنيا،ولا يشقى فى الآخرة،وأقسم لها سبحانه قائلاً : ﴿فَـــلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء : ٦٥] .

ثم إذا هي تدير ظهرها لوحي الله ولسنة رسوله ، وتتبع الطواغيت الذين هم في الغالب خونة لدينهم وأمتهم ، تتبع شرعهم وتهتف باسمهم ، وتقـــدم شرعهم وقانونهم على قانون الله وشرعته .

أمة عبدت فئات كثيرة منها الأوثان متمثلة في قبور الصالحين واتخـــذتها مساجد ورسولها لعن من فعل ذلك .

أمة والت الكافرين وأحبتهم واقتدت بهم في قوانينها وأنظمتها وعاداتهـــا وتقاليدها .

أمة أكلت الربا ولعبت بدين نبيها ، وشربت الخمور وسمتها بغير اسمه .

أمة أهملت سنن الله في الكون ، ولم تأخذ بأسباب القـــوة والتقـــدم ، وتركت عدوها يتفوق عليها في كل مجال وانشغلت بتوافه الأمور [1] .

هل بعد هذا يترل عليها نصر الله أم أنه سبحانه لايبـــالى في أي الأوديـــة هلكت ؟

لقد شعر المسلمون ببعدهم عن دينهم ، وبما أصابهم مـــن ذل وهـــوان ، وبالبون الشاسع بين ماهم عليه وبين ما يدعو إليه الإسلام ، فأخذوا يعودون فرادى وجماعات فيما عرف بالصحوة الإسلامية المباركة .

---

(١) لقد احتشد أكثر من مائة ألف في استاد القاهرة في مباراة لكرة القدم وأخـــذوا يهتفـــون جميعاً:يا رب:يا رب ماذا يريدون من الله ؟أن ينصرهم على اليهود أو أن يرفع عنهم الغلاء والبلاء أو أن يحكم فيهم شريعته،لا،ولكن أن يدخل لهم الكرة في الشباك ، هذا في الوقـــت الذى كانت فيهم أقليات إسلامية تباد ومقدسات إسلامية تنتهك !! .



الفصل الثاني

مفهوم العلمانية

مفهوم العلمانية

مما تقدم يتبين مفهوم العلمانية عند الغرب وظروف نشأها وكيف تبلورت حتى صارت فلسفة ومنهجاً وطريقة للحياة .

فالعلمانية تعني عندهم قسمة الحياة قسمين ، قسم لله ويتمثل في جانب ضيق جداً ، وهو الجانب الخاص ببعض الشعائر التعبدية داخل الكنيسة أو المعبد يوم في الأسبوع لمن أراد ، وبعض مظاهر الأحوال الشخصية .

والقسم الثاني وهو الأعظم والأكبر والأخطر والأهم لقيصر أو للحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، المهم أن هذا القسم أو هذا الجانب لا دخل لإله الكنيسة فيه ، ويتمثل ذلك في السياسة والاقتصاد والأخلاق والمناهج وطريقة العيش والعادات والتقاليد وسن القوانين ، وغير ذلك من مختلف شؤون الحياة، فإن كل هذه الجوانب لقيصر ليس لله تعالى فيها شيء ؛ لأنه كما قال أحدهم : ((إن عهد وصاية السماء قد انتهى بانتهاء الرسالات السماوية وإن البشرية بلغت سن الرشد ، فلها أن تغير الأحكام وتبدلها طبقاً لتغير الأحوال والملابسات)) (١) .

فالعلماني لا ينكر بالضرورة وجود الله ، ولكن الله في التصور العلماني الجاهلي وفي تفكيره القاصر غير قادر على أن يضع نظاماً للحياة يتناسب مع كل زمان ومكان !!

---

(١) مجلة الطليعة : محمد أحمد خلف الله ، ١٩٧٥م.

فالله – سبحانه وتعالى – في التصور العلماني الجاهلي هو الذي خلقنا ورزقنا كما كان يؤمن بذلك مشركو مكة ولكنه – سبحانه – ليس له سلطان عليهم ولا يحكمهم ، لأن البشرية قد بلغت الرشد فهو– سبحانه – يملك ولكنه لا يحكم .

وإذا أردنا تقريب هذا المفهوم من واقع الناس فإن العلمانية في تصورها للخالق – سبحانه – تشبه النظام الملكي البريطاني ، فالملك فيه أو الملكة لا تحكم ولا تتدخل في أمور السياسة والحكم أو سن القوانين والأنظمة ، وليس لها دخل بتسيير أمور البلاد الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية ، وإنما يقتصر دورها على أنه منصب شرفي ورمز للدولة ، وبعض الأمور الهامشية كاستقبال الرؤساء والملوك .

((إن إله الغرب مثل إله أرسطو لا يعلم شيئاً غير ذاته ، ولا يدرى عما في الكون شيئاً ، ولا يدبر أمراً ولا يحرك ساكناً ، فهو كما قال مؤرخ الحضارة والفلسفة (**ول ديورانت**) : إله مسكين أشبه بملك الانجليز يملك ولا يحكم)) [1] هذا هو مفهوم العلمانية .

أما العلمانية لغة : فالعلمانية بفتح العين نسبة إلى العلم بمعنى العالم ، وهو خلاف الديني ، ولقد شاع بين المثقفين العلمانية بكسر العين نسبة إلى

---

(١) الإسلام والعلمانية للقرضاوي .

العلم ، واستغل ذلك العلمانيون ليوهموا الناس أن هناك تعارضاً بين العلـــم والدين ، وعلى كل سواء كانت العلمانية بالفتح أو بالكسر فالعبرة بالمقصود منها .

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريفها للعلمانية :

هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم مـــن الاهتمـــام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها ، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخـــر ، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت العلمانية تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهـــرون تعلقهـــم الشـــديد بالإنجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة ، وظل هذا الاتجاه يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث باعتبـــاره حركـــة مضادة للدين ومضادة للمسيحية .

ويقول المعجم الدولي الثالث الجديد في تعريف العلمانية : اتجاه في الحيـــاة أو في أي شيء خاص يقوم على مبدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة ، واستبعاد هذه الاعتبارات استبعاد مقصود ، فهي تعـــني مثلاً السياسة اللادينية البحتة في الحكومة ، وهى نظام اجتماعي في الأخلاق

مؤسس على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظـــر إلى الدين .

وجاء في معجم حديث للعلوم الاجتماعيـــة (**للـــدكتور حنـــا رزق**) في تعريف العلمانية :(علماني نسبة إلى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الـــديني أو الكهنوتي وهذه تفرقة مسيحية لاوجود لها في الإسلام ،وأساسها وجود سلطة روحية هي سلطة الكنيسة وسلطة مدنية هي سلطة الولاة أو الأمراء) .

هي رؤية للحياة أو في أى أمر معين يعتمد أساساً على أنه يجب اســتبعاد الدين وكل الاعتبارات الدينية وتجاهلها ، ومن ثم فهى نظام أخلاقي يعتمـــد على قانون يقول : بأن المستويات الاجتماعية يجب بأن تحدد مـــن خـــلال الرجوع إلى الحياة المعيشية والرفاهية الاجتماعية دون الرجوع إلى الدين .

هذا هو مفهوم العلمانية عند الغرب ، ويبدو أن الغرب قد أحس بتأنيب الضمير لهذه القسمة الضيزى ، فأخذ يبحث عن مبررات لهذه القسمة فوجد نصاً في إنجيل لوقا في الإصحاح العشرين منه يقول :

((فراقبوه (أي عيسى عليه السلام) وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهـــم أبرار لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكم الوالى وسلطانه ، فســـألوه قائلين : يا معلم تعلم أنك بالاستقامة تتكلم ولا تقبل الوجوه بل بالحق تعلم طريق الله أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا ؟ فشعر بمكرهم ، وقال لهم

لماذا تجربوني؟ أروني ديناراً لمن الصورة والكتابة ؟ فأجابوا وقالوا لقيصر فقال لهم : أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله)) .

وفي إنجيل متى الفصل الثاني والعشرين يقول :

((حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة ، فأرسلوا إليهم تلاميذهم مع الهيروديسيين قائلين : يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن نعطى الجزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربوني يا مراؤون ؟ أروني معاملة الجزية ، فقدموا له ديناراً ، فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر . فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)) .

وجاء في إنجيل مرقص الإصحاح الثاني عشر :

((ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة فلما جاؤوا قالوا : يا معلم تعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس بل بالحق تعلم طريق الله أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا نعطه ؟ فعلم رياءهم وقال لهم : لماذا تجربوني ؟ ايتوني بدينار لأنظره فأتوا به ، فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا : لقيصر ، فأجاب يسوع وقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)) .

وإذا صح هذا النص عن عيسى عليه السلام ، فليس هذا دليل على الفصل بين الدين والدولة ، فاليهود – عليهم لعنة الله – كانوا يريدون أن يوقعوا المسيح عليه السلام في أن يخطئ في قيصر ثم يسلموه إلى قيصر فيقتله ، فعلم المسيح عليه السلام خبثهم ، وأنهم لن ينتفعوا بالحق إذا قاله لهم صريحاً ، فقال لهم كلاماً لا يتضرر بسببه ، وهو في ذات الوقت صحيح وحق بل على عكس مرادهم ، وأنه لا يجوز أن يصرف حق الله في الحكم والتشريع لأحد ، حتى ولو كان قيصر ، كيف لا وبنو إسرائيل أنفسهم لم يعرفوا هذه القسمة، ولقد كانت الأنبياء تتعاقب عليهم كلما هلك نبي قام مكانه آخر يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ٢٤٦] ، في هذه الآية دليل واضح على أن أهل الإيمان من بني إسرائيل كانوا هم المهيمنين على الملوك والقادة ، وأن الأنبياء هم الذين كانوا يسوسون بني إسرائيل ، ولذلك جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم) قال في لسان العرب شرحاً للحديث : أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية .

وبغض النظر عما إذا كان عيسى عليه السلام قال هذا أم لا ، وبغض النظر أيضاً عما إذا كان هذا هو الفهم الصحيح للنص ، فإن الغرب النصراني وجد في دينه مبرراً لهذه القسمة .

أما الإسلام والمسلمون فلم يعرفوا هذه القسمة أبداً ، بل عرفوا من دينهم أن الإسلام دين ودنيا ، ومصحف وسيف ، وشريعة للحياة وعبادة ، وعلموا أن الذي يعطي حق التشريع والحكم لغير الله يصير مشركاً مما سنبينه في حكم الإسلام في العلمانية بمشيئة الله .

الفصل الثالث

سقوط العلمانية

سقوط العلمانية

قد يبدو هذا العنوان مثيرا وغريبا على كثير من الناس ، ففي الوقت الذي تكتسح فيه الحضارة الغربية التى تمثل العلمانية ، تكتسح الحضارات الأخرى بمفاهيمها وتقاليدها ونظمها ، وفي الوقت الذي انهارت أمامها أكبر القوى ونقصد به الاتحاد السوفيتي بينما هى صمدت بل يرى كثير من الناس أنها ازدادت قوة وتمكينا ، أقول : في هذا التوقيت يخرج علينا من يقول بانهيار العلمانية التي تمثلها تلك القوى الجبارة وتدافع عنها حتى خارج حدودها في معظم بلدان العالم خاصة بلاد المسلمين ليس بالاستعمار المباشر الذي ولى ولكن بالمؤامرات وتنصيب العملاء الذين ينفذون مخططاتهم بدقة وإتقان .

ولكننا نحن المسلمين نعلم أن هذه القوى المنتفشة هي الزبد الذي قال عنه ربنا سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧]

ونعلم كذلك أن بداية انهيار الشيوعية هى نفسها بداية انهيار العلمانية ، ولابد ، فإنهما كجناحى الطائر ما إن يقصسس منهما جناح حتى يسقط ويهوي الطائر نفسه بعد ذلك .

إن الشيوعية هي إحدى إفرازات الحضارة الغربية وثمرة من ثمراتها الخبيثة التى أينعت ، ولا تختلف الشيوعية عن الغرب والعلمانية إلا أن روسيا قد خلعت جلباب النفاق والحياء والزور ونفذت ما تؤمن وتعتقد به علمانية

الغرب منذ زمن طويل في الأخلاق والاجتماع ، وكل ما فعلته روسيا الشيوعية أنها أرادت أن تسرع الخطا لتطبق ما تعلمته من الغرب العلماني ، وتقود به العالم ، وما الصراع الذى كان بينهما إلا صراع وتقاتل داخلي على من يقود وعلى من يكون الزعيم.

يقول **كونستانتان جورجيو** : (إن هذه الحرب التى تسمى الحرب العالمية الثالثة ليست حرب الغرب ضد الشرق ، وبعبارة أوضح إنها ليست حرباً على الإطلاق حتى ولو امتد خط القتال من قطب إلى آخر وغمر الأرض كلها ، إن هذه الحرب ليست إلا ثورة داخلية في نطاق المجتمع الآلي الغربي) .

سؤال : لكننا نحارب الشرق وأوروبا الشرقية كلها ؟

جواب : هذا خطأ إنكم أنتم الغربيين تقاتلون فرعاً من أكثر فروع الحضارة الآلية الغربية تقدماً .

لقد نقلت روسيا كل نظرياتها من الغرب ، وكل ما عملته هو أن طبقت تلك النظريات ، لقد حولت روسيا الإنسان إلى صفر كما تعلمت من الغرب أن تحوله وحولت المجتمع إلى آلة هائلة كبيرة ، كما تعلمت ذلك من الغرب أيضاً ، لقد قلدت روسيا الغرب كما لا يستطيع أن يقلده إلا البرابرة والمتوحشون ، إن ما هو روسي حقيقة مما أضيف إلى المجتمع الشيوعي ليس

إلا الوحشية والبربرية ، إن هذا كل ما للروس من أشياء تخصهم وما تبقى جاء من الغرب .

ثم يواصل **جورجييو** كلامه :

((إننا إذا استثنينا التعطش إلى الدم والبربرية في روسيا وجدنا كل شيء قد نقل بأمانة عن الغرب .

أما أنتم فإنكم تحاربون هذه الظاهرة من المدنية الغربية الفرع الشيوعي من المجتمع الآلي الغربي .

ولهذا فإن هذه الحرب الثالثة ليست إلا ثورة داخلية انفجرت في صميم المجتمع الآلي ، إن الفرع الأوروبي الأطلنطي من المجتمع الغربي يحارب الفروع الشيوعية الغربية ، إنها حرب داخلية ناشئة بين طبقتين في مجتمع واحد ، إن الشرق لا يساهم في الثورة الداخلية

إن أيا كان خارج المجتمع الآلي الغربي لا يساهم في هذه الثورة ، ولما كانت هذه الثورة غربية بكل عناصرها فإنها ليست لمصلحة الإنسان ، إن المجتمع الغربي لا يحفل بالإنسان)) (1) .

---

(1) تهافت العلمانية ص ١٩٣ .

يقول صحفي غربي :

((إن الشيوعية أفضل من الإسلام ، لأنها في الأصل فكرة غربية يمكن الالتقاء معها، أما الإسلام فلا التقاء معه ولا تفاهم إلا بلغة الحديد والنار)) (١) .

هذا ما كتبه غربيون عن فرع من فروع الحضارة الغربية ، ولكن ماذا حدث لها ؟ الذى حدث لها أنها انهارت وتساقطت كتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف بعد أن ظن كثيرون أنها ستكتسح العالم كله ، ولن يقف في وجهها شيء.

لقد مرت على المسلمين فترات عصيبة ظن كثير من أعداء الله أنه لن تقوم للإسلام بعد ذلك قائمة ، فالشيوعية تكتسح ، ومن قبلها كانت الصليبية ، والذي يطالع ما كان يكتب يحدث له نوع من التشاؤم بمستقبل الإسلام والمسلمين فالإسلام محاصر ، وبلاد المسلمين معظمها محتل ، ثم جاءت الشيوعية تكتسح معاقل المسلمين القوية .

((جاءت الاشتراكية والقومية والوطنية والديمقراطية والحرية وفلسفة التطور واللادينية وغيرها من المسميات والشعارات وسرت عدوى هذه الأوبئة سريان النار في الهشيم ، وتغلغلت في العقول والقلوب التي فقدت رصيدها من لا إله إلا الله أو كادت ، وترتب على ذلك أجيال ممسوخة

---

(١) صحيفة شيكاغو اليومية ١٩٧٩م .

هزيلة أخذت على عاتقها مهمة تعبيد أمتها للغرب والإجهاز على منابع الحياة الكامنة فيها)) .

وسرت في مطلع هذا القرن حقبة مظلمة راجت فيها سوق الأفكار الموبوءة والمذاهب المنحرفة حتى أظهر أعداء الإسلام تفاءلهم بأن هذه الأمة ستلفظ أنفاسها عما قليل (١) .

فالعلماء المخلصون يطاردون ، ويعلقون على أعواد المشانق ، والدعاة إلى الله يضربون على أيديهم ويسكتون وأهل الباطل يفتح لهم المجال في جميع وسائل الإعلام ومواقع اتخاذ القرار ويوسع لهم الطريق .

يقول الأستاذ محمد أحمد باشميل : ((فبعد أن كانت روسيا وبكين هي المقر الوحيد لقيادات الدعوة الصريحة إلى الإلحاد ومحاربة الإسلام وكل دين سماوي ، أصبح اليوم في العالم العربي وفي دمشق والقاهرة بالذات قيادات للإلحاد تشن الحرب السافرة على الإسلام وعلى كل قيادة تدعو إلى الإسلام، وبعنف وضراوة يقصر دونهما أحياناً عنف وضراوة أعداء الإسلام الملحدين أنفسهم في موسكو وبكين)) .

والغريب أنهم مع هذه الحرب السافرة يصرون على أنهم مسلمون بل وأنهم على الإسلام الحقيقي .

---

(١) العلمانية لسفر الحوالي .

ثم يشاء الله القدير أن تنكسر هذه الموجة وهذا الطوفان بطريقة شاذة وينسحب بأسلوب غير منظم ويصبح أثراً بعد عين ، وتاه الشيوعيون والملحدون العرب لأنهم فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم ، ونزل عليهم انهيار الشيوعية كالصاعقة حتى قال قائلهم :

أهل اليسار ياليل فاتوا مضاجعهم   اتبعزؤوا ياليل صحبة وأنا معهم

ووجدنا من يكتب منهم في الصحف بالإسراع لإنقاذ الاتحاد السوفيتي من التفكك والانهيار من الدول الغنية ، حتى لا ينفرد الغرب بنا ، وما درى المسكين أن هذه بداية النهاية للاثنين معاً .

لم تستمر حيرة الشيوعيين طويلاً،ونظروا يمنة ويسرة هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى المقابل إلى العلمانية، لم ينتظروا حتى ينسى الناس دعوتهم السابقة وانحيازهم الماضى،واختيارهم القديم ولكن بحثوا ونظروا والتفتوا في دهشة وحيرة فلم يجدوا إلا الإسلام والعلمانية ، ولما كانوا من قديم يبغضون الإسلام ونظافته واستقامته لأنه وكما قيل فيهم بحق إن إلحادهم كان إلحاد فرج وبطن .

فقد وجدوا أن يركبوا العلمانية قريبة الشبه من الشيوعية ، خاصة أن لها أنصاراً وحضارة قائمة ، وتكفل الدولار كي يضفي عليهم الاحترام .

فتنادوا بالمجتمع المدني ، ورفعوا شعارات العلمانية : الدين لله والوطن للجميع ، ودع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ويقول في موضع آخر : ((والدليل على نجاح الملحدين من يكتب على صفحات الجرائد وبطون المؤلفات جهاراً نهاراً ، وفي قلب العالم العربي أن الله خرافة ، وأن الله الحقيقي هو الذرة المتحفزة ، والصاروخ المنطلق)) إلى أن يقول :

((يضاف إلى هذا نجاح القيادات الماركسية الرئيسية في الاتجاه بإقامة مؤتمرات واتحادات عالمية وثقافية وسياسية وعمالية ، فقد سيطروا على اتحاد طلبة العالم واتحاد الكتاب الآسيويين والأفريقيين واتحاد المحامين العرب ونقابات العمال ومؤتمرات العالم الثالث الذى عقد في كوبا وغيرها من المنظمات والاتحادات العديدة التي تبناها الماركسيون)) (١) .

ففي بلد مثل مصر رأس الحربة للمسلمين سيطروا على كل ومعظم النقابات تقريباً ، واتحاد الطلبة ووسائل الإعلام وصبغوها صبغة ماركسية ، وهجر الشباب المساجد ، وأصبح من النادر أن تجد شاباً محافظاً على الصلاة خاصة في الجامعات إلا وأشبع سخرية واستهزاء ، وأصبح المؤمن يستخفى بإيمانه .

لقد اجتاحت المبادئ الشيوعية الإلحادية كثيراً من مناطق العالم وبخاصة في بلاد المسلمين ، واستولت على مراكز مهمة ، وسادت موجة عظيمة من الشك في الدين ومدى صلاحيته نتيجة لهذه الموجة العاتية .

---

(١) ندوة المحاضرات .

في نفس الوقت الذى يقولون فيه بخبث أنهم يحترمون الدين الذى كانوا يلحدون فيه بالأمس ، وساعدهم على ذلك نفوذ الغرب وسيطرته ، وفي نفس الوقت مراكزهم في وسائل الإعلام التى تفسح لهم الطريق وتشجعهم وبعد أن كانوا متحمسين ومتعصبين للشيوعية أصبحوا وبنفس القوة متحمسين للعلمانية وإبعاد الإسلام عن أن يأخذ دوره الحقيقي بعد انهيار الشيوعية، ولكن الذي ينظر ويتأمل يجد أن حضارة الغرب المادية بفرعيها الإلحادي والعلماني في طريقها للانهيار النهائي ، وإن كانت الشيوعية سقطت سريعاً ؛ لأنها لا تتلاءم على الإطلاق مع الفطرة ، فإن العلمانية والحضارة المادية سوف تلحق بها سريعاً بإذن الله ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٦] .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء : ١٦] .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

((إن حضارة لا تعتمد سوى العلم في حركتها ، هي حضارة عرجاء تسير على ساق واحدة ولابد للأعرج أن يسقط في يوم من الأيام ٠

إن حضارة لا تلتزم إلا بالعلم في تقدمها ، إنما هي حضارة لا تملك سوى عين واحدة بعد أن اختارت بنفسها أن تفقأ عينها الأخرى ، ولابد لإنسان لا يبصر إلا بعين واحدة ، أن يفقد الرؤية الواضحة ويسقط في يوم من الأيام .

إن ثورة الإسلام ، وكفاح الأنبياء هو لإقامة حضارة سليمة تمشي على ساقين وتبصر بعينين ، حركة ضد العمى والكساح الذى اختارته دائماً حركات العلمانيين لاستعباد الناس من دون الله .

إن أمة لا تمشي إلا بساق واحدة ولا تبصر إلا بعين واحدة من السهل أن تقاد كما تقاد الأغنام وراء جزاريها حتى ولو انتهى الأمر بها إلى الذبح .

إن دعوة الإسلام صرخة رجاء بوجه البشرية أن تتمرد على أربابها وأن تستعيد سيرها الطبيعي ورؤيتها الكاملة للأشياء ، وهل يتم ذلك إلا بالعودة إلى منهج الله وقيم الله ؟)) [1] .

يقول أحد الباحثين عن خطورة الفصل بين العلم والدين :

إن العلم يواجه ورطة شديدة ، فالعلم هو البحث عن الحقيقة ، وأساس العلم العقيدة الراسخة بأن الحقيقة تستحق الاكتشاف وأن البحث عنها إنما ينبع من أشرف صفة من صفات الروح الإنسانية ، ومع ذلك فهذا البحث عن الحقيقة هو نفسه الذى جعل حضارتنا تقترب من حافة الدمار .

وعندما نواجه الآن السخرية التي تحولت إلى مأساة ، وهى أننا كلما نجحنا في توسيع آفاق معرفتنا كان ذلك نذيراً بقرب الخطر الذى يهدد بالقضاء المبرم على الحياة البشرية على هذا الكوكب ، فهذا السعي وراء

(١) تهافت العلمانية .

الحقيقة أمدنا في آخر الأمر بالأدوات التي تمكننا من هدم مجتمعنا بأيدينا والقضاء على كل الآمال المشرقة لجنسنا ، ما عسانا فاعلين في هذا الموقف : هل نكبح جماح العلم أم نتمسك بطلب الحقيقة ؟ رغم ما في ذلك من تمزيق وتبديد لمجتمعنا (١) .

ولقد شعر كثير من مفكرى الغرب وقادته بفداحة الجريمة في حضارتهم العلمانية عندما فصلوا بين العلم والحياة من ناحية وبين الدين من ناحية أخرى، وما جره عليهم ذلك من تفكك أسري وانهيار أخلاقي وشذوذ وانحراف وأمراض نفسية وخواء روحي ، وشرع العقلاء منهم بمحاولة إنقاذ السفينة من الغرق والعودة إلى الأسرة والدين والتدين ؛ لأنهم يشعرون بتعاسة رغم البهرجة التي يعيشون فيها ، حتى قالت امرأتهم الحديدية : ((إننا نعيش أتعس أيامنا رغم المظاهر التي توحي بغير ذلك)).

يقول المفكر (**أرنلد توينبي**) :

((إن مستقبل الإنسانية يتوقف على إخوة روحية لا يمنحها إلا الدين وهو الشيء الذى يحتاج إليه الإنسان في هذا الوقت إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين في عصر الذرة ، وإننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي أن تتحصن الإنسانية كلها من غير استثناء وتتعلم كيف تعيش كأسرة واحدة ، وذلك يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها إلا الدين)) .

---

(١) من كتاب : العلم وأسراره وخفاياه .

يكتب الدكتور عماد الدين خليل في كتابه القيم (تهافت العلمانية) فصلاً من الشهود على فشل الحضارة الغربية وفشل العلمانية أن تكون بديلاً عن الدين بشهادة كبار المفكرين الغربيين ، وسأكتفي بأن أنقل بعض الشهادات من كلام المفكرين الغربيين على فشل حضاراتهم وسيرها نحو الهاوية .

يقول في المقدمة عن كتاب (سقوط الحضارة) لمؤلفه **كولن ولسون** :
يعد كولن ولسون بلا جدال من أبرز شهود القرن العشرين على ما تعانيه الحضارة العلمانية من تأزم وعدم توازن ، ليس بتركيزه وتنسيقه لشهادات حشد كبير من علماء أوروبا ومفكريها وفنانيها الكبار فحسب ، بل إنه استطاع كذلك أن يضع يده كالطبيب المتمرس الناجح على مصدر الداء وقال بصراحة : هنا يكمن الداء ونادى بأعلى صوته :

إن حضارة تعتمد العلم دون الدين ، حضارة لايمكن أن تظل طويلاً ؛لأن الأجواء التي تخلقها ليست بتلك التي يتلاءم معها الإنسان الواعي المجرب .

يقول (**كولن ولسن**) :

إن الغرض من تأليف الكتاب (سقوط الحضارة) هو أن أقول شيئاً عن حاجة هذا العصر إلى دين جديد (أي غير الذى عرفته أوروبا) ، وأنه إذا أردنا أن نعرف الدين وجدنا أنه يعني أكثر من مجرد جماعة من المتدينين ، إنه

يعني مكاناً عاماً للعبادة ، ومن أجل ذلك أعلـــن **برغســـون** الفليســـوف الفرنسي عندما تحدث عن المدنية : إن فصل الدين عن العلم هو فناء محتـــوم للاثنين معاً .

مرت سنوات ويقول **(ولسون)** : وأصبح الشخص القلق الـــذى سميتـــه اللامنتمي (هو الرجل الذى يسيطر عليه مفهوم تفاهـــة الحيـــاة) أصـــبح اللامنتمي هو بطل عصرنا،وكنت أنظر إلى حضارتنا نظرتي إلى شيء رخيص تافه باعتبار أنها تمثل إنحطاط جميع المقاييس العقلية،وبعكس ذلك فقد لاح لي اللامنتمي الرجل الذي يشعر لأي سبب كان بالوحدة وسط جمع من الذين لا يبلغون منزلته،وكان اللامنتمي كما تصورته إما مجنوناً أو قديساً طالمـــا لا يهمه إلا أن يحصل على لحظة واحدة يستطيع أن يفهم بها العالم ويكتشـــف أسرار الطبيعة والله.

وكنت كلما تغلغلت في دراسة اللامنتمي شعرت بأنه ليس غير عرض من أعراض هذا العصر ، أما من حيث الجوهر فهو عاصٍ ، وأما سبب عصـــيانه فهو انعدام الجانب الروحي من حضاراتنا الغنية مادياً .

ولم يكن أمراً شديد الأهمية أن أستنتج أن اللامنتمي هو عرض من أعراض تدهور الحضارة ، لأن اللامنتمين يظهرون كالبثور علـــى جلـــد الحضـــارة المحتضرة .

ويميل الإنسان إلى أن يكون على طبيعة محيطه ، فإذا كانت الحضارة مريضة روحياً فإن الفرد ذاته وإن كانت صحته تساعده على تحمل أعباء الكفاح فإنه يصبح لامنتمياً .

ويمضى **كولن ولسون** قائلاً :

إن مدى الفعالية العادية في حضارة حديثة يبنى جداراً حول حالة الإدراك العادية ويجعل النظر إلى ما هو وراء ذلك مستحيلاً .

إن الظروف التى نعيش فيها تفعل ذلك بنا ، وهذا هو الذى يحدث في أى حضارة صاخبة كالدينامو لا تفسح مجالاً للدعة والتأمل ، ويبدأ الناس يفقدون الشعور الداخلي بأشكال الكينونة اللامعروفة ، وبمعنى الهدف الذي يمكن أن يجعلنا أكثر من مجرد خنازير كفؤة جداً وهذا هو الرعب الذي يثور اللامنتمي ضده .

إن (**كولن ولسون**) يضع يده منذ اللحظات الأولى على الأساس العميق لمشكلة اللاانتماء ذلك هو ((انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية مادياً والبحث عن الهدف الذى يجعل من الناس أكثر من مجرد خنازير كفؤة جداً)).

وهل المسار الذى تسلكه الحضارة الغربية الآن سوى تأكيد للمادية وقضاء على آخر ما تبقى من النشاطات الروحية ، وسعي حثيث من أجل خلق

مجتمع الخنازير التى تتميز بكفاءة فذة في توجيه فاعليتها الشيئية وقدرة عجيبة على الاستجابة لدوافعها الجسدية ولكن دون أى كفاءة أو قدرة على إيجاد علاقات روحية أو إشباع دوافع الوجدان .

إن الهدف الذي تحثو حضارتنا المعاصرة خطاها إليه مرعب حقاً ،أن نتحول جميعاً إلى خنازير تتميز بطاقة هائلة على الأداء المقنن والإنتاج السريع، ولكنها لا تستطيع أن تمد عينها إلى الأمام أو أن تلتفت إلى الوراء لكي تعرف الخطوة اللاحقة التى ستخطوها والسابقة التى خلفتها وراءها ؛ لأن معرفة هذه لا تخدم أبداً منطق الأداء المقنن والإنتاج السريع طالما أن التشوف إلى الأمام قد يقود إلى ما وراء الواقع القريب من قيم وأهداف روحية ، وطالما أن الالتفات إلى الوراء قد يقود إلى البحث في تاريخ المسيرة البشرية وفحص حسناتها وسيئاتها ، وهو أمر له صلة ما بالروح والطموح الإنساني .

يقول أرنولد توينبي :

قد أغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعها المصابيح الجديدة لهم مقابل المصابيح القديمة .

لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلاً منها السينما والراديو ، وكان نتيجة هذا الدمار الحضاري التى سببته تلك الصفقة الجديدة ، إفقارا روحياً وصفه أفلاطون بأنه مجتمع الخنازير .

يقول **توفيق الحكيم** في كتابه (**شمس الفكر**) :

الذكاء ليس بالمزية التي اختص بها الإنسان وحده ، والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادي الكامل ليس وقفاً على المجتمع البشرى ، فإن مجتمع النمل لأدق منا إحكاماً في الاقتصاد ولكن الذى يميزنا نحن معاشر البشر هو الإيمان ، ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك الإيمان الديني ، لأن حياة الروح لم يلج بابها بعد غير الإنسان .

يقول **ولسون** :

انعدام الشعور بالأمن وعدم القدرة على التعبير عن النفس دافعان آخران من دوافع التمرد اللامنتمى ، أما الأول فلأن الحضارة الغربية لم يعد يهمها أي شيء عن المصير وكأن فرصة السنوات الستين أو السبعين ، وما يقدمه الإنسان فيها من إنتاج وما يحصل عليه خلالها من إشباع هي كل ما هنالك ، وليس وراء ذلك أيما شيء ، ليس وراء ذلك أي مصير سوى تسليم الدور أو بالأحرى مساحة الأرض في مدينة ما من المدن أو مصنع ما من المصانع أو مزرعة ما من المزارع أو سوق ما من الأسواق من إنسان لآخر لكي يقضي عليها فرصته هو الآخر إنتاجاً وإشباعاً ليس وراء ذلك أي مصير ، جنة وارفة كان المصير أو نار محرقة.

يقول **ولسون** :

حقاً إن الذين يقتنعون بمعطيات الحضارة المعاصرة ، طعاماً وشراباً وملبساً وسكناً واتصالا جنسياً وسفراً ومطالعات سريعة ومشاهدات

ولقاءات عابرة ، والذين تتعبدهم تيسيرات هذه الحضارة من سيارات وثلاجات ومكيفات هواء وآليات الهدم والبناء ، والذين تأسر أنظارهم منجزاتها التقنية والفنية والعمرانية دون أن ينبض وجدانهم يوماً بهزة حزن عميق أو فرح طاغ ودون أن تتمخض مطامحهم الروحية عن أمل كبير أو مصير عظيم ، ودون أن يبذلوا جهداً في مزيد من التركيز الذهني من أجل معرفة مكان الإنسان في الكون والمآل الذى ستقوده خطواته إليه .

إن ناساً كهؤلاء ليسوا أكثر من مرضى وأنصاف رجال ؛لأن الإنسان كما أنه بالإنجاز المادي والإشباع البيولوجي فإنه كذلك بهزة الوجدان وتمخض الروح وذهاب الفكر بعيداً بحثاً عن القيم والأهداف التى لا تلمسها الأيدى ولا تدركها الأبصار .

إن **أريلكه** الشاعر الألماني يسأل : هل من المحتمل أنه بالرغم من اكتشافاتنا وتقدمنا فإننا مازلنا على سطح الحياة ؟

هل من المحتمل أن تاريخ العالم كله قد أخطئ فهمه ويجيب على كل سؤال : أجل إن ذلك محتمل ؟

وتلك هي صورة من صور المأساة العلمانية ، إنها تهيئ أجواء غير صالحة للرجل الكامل الصحيح ، ومن أجل ذلك يثور اللامنتمي ضد النصفية والمرض وهو يشعر بالاحتقار ، لكن تطرفه في رد فعله وعدم قدرته ذاتياً على

التوصل إلى الدين أو المنهج الذى يضبط ثورته ويصوغها ويوجهها في الطريق الصحيح قد يدفعه آخر الأمر إلى الجنون .

يقول **ولسون** :

إن الجنوح المادي الذى تعانيه الحضارة الغربية، والذى انعكس على الإنسان تمزقاً في وحدة ذاته وشللاً أصاب نشاطه الروحي، هذا الجنوح قاد عدداً من الباحثين الغربيين إلى القول بحتمية سقوط تلك الحضارة التى اختارت الكساح بدلاً من الانطلاق على قدمين ، والتى أبت إلا أن تهمل أو ترفض تلك الطاقات الروحية الخلاقة التى بها يمتلك الإنسان القدرة على تغيير ذاته وامتلاك زمام نفسه، وبالتالي امتلاك زمام العالم بأسره ، ويقف ((**سبنجلر**)) دون منازع على رأس القائلين بالسقوط، وإذا أردنا أن نلخص الأشياء التى نتعلمها منه فإنها تتمثل في أنها حضارة متدهورة،وأن أعراض تدهورها تتمثل في الفلسفة التجريدية التى يعرفها ((**بليك**)) بأنها تحول البشر إلى أقزام .

إن الحضارة الغربية هي في جوهرها حضارة لا انتمائية .

أما مادية اليوم فإنها علامة على تصلب شرايينها بيد أن سبنجلر يقول :

إنه ليس هنالك من مهرب ، إننا الآن في آخر مراحل التدهور ويجب علينا أن نؤمن بهذا ، وليس هنالك أى احتمال في ظهور دين جديد أو فلسفة جديدة (يعنى للإنقاذ) لأن تربة الغرب منهوكة ميتافيزيقيا .

إن التاريخ الحديث يتجه نحو التدهور ، وليس فى استطاعتنا أن ننظر اليه وكأننا سنعيش أبداً .

إن تاريخ سبنجلر يتصف بما يتصف به الوصف الطبى للأعراض ، وإننـــا لنقر بأنه يعتبر تدهور حضارتنا أمراً لا مفر منه تماماً كما يعتقد طبيب بـــأن موتنا لا مفر منه .

ونمضى مع كولن ولسون في استعراضـــه للخطـــوط العريضـــه لحتميـــة (**سبنجلر**) مقارناً إياها بما طرحه مفكرون غربيون آخرون في هذا المجال . إن كتاب **شوبنهاور** (العالم كإرادة وفكرة) وكتـــاب (تـــدهور الغـــرب) متشاهان لدرجة أننا نستطيع أن نعتبرهما شقيقين أدبيين .

وقد قال (**سبنجلر**) : إن الحضارات تشبه البشر ؛ لأنهـــا تولـــد وتنمـــو وتنضج وتموت ، ويتكون البشر من حجيرات بيولوجية ، أما الحضارات فإنها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة تماماً كالحجيرات الـــتى تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات .

التقدم : لا تقدم هنالك فكما أن كل جيل من البشر لا يقل حمقاً عـــن الجيل الذي يسبقه فإن الأمر كذلك في الحضارات ، الهـــدف : لا هـــدف هنالك وإنما هي عملية بيولوجية كالحياة نفسها ، وهنـــا نـــأتي إلى أســـاس اللامنتمي فهو يرفض أن تكون الحياة مجرد تكرار لا معنى له من التفاهـــات الإنسانية .

إن توافق عصر لا ديني مع فكرة مدنية عالمية توافقاً محكماً يعني أن ذلك العصر هو عصر تدهور ، ويتنبأ سبنجلر بعصر من الشك التام وبأن هذا العصر سيكون المرحلة الأخيرة من الحضارة الغربية .

وهو يقول :

إن هذه المرحلة النهائية حتمية بالنسبة للتاريخ الغربي ، وهو يعتقد مثل (**هـ ج ولز**) بأنه لا طريق هنالك إلى الخارج أو إلى ما حول أو إلى الداخل ولكن سبنجلر كان في بعض الأحوال أقرب إلى (**شوبنهاور**) منه إلى (**نيتشه**)، لأنه لم يبن نظرته المتشائمة إلى التاريخ على العقل والملاحظة وإنما كان يمثل رد فعل ضد عصره كغيره من الأنبياء وقد ساقه إلى التطرف ما رآه من الضحالة حوله وما لمسه من الكسل الروحي (١) .

لقد اختصر (**الفرنورث وايتهير**) نظرية (غوته وسبنجلر) الضخمة عن انهيار الغرب في كلمة واحدة : تجزئة الطبيعة أي افتعال التصادم بين ما هو نظري وما هو منطقي، وما هو طبيعي ، وما هو غير طبيعي ، وما هو روحي، وما هو مادي (٢) .

يقول **ولسون** : ولا نريد المضي في استعراض وجهة نظر سبنجلر في الحضارة المعاصرة ، لأن هذا يقودنا إلى تفسير وفلسفة التاريخ مما ليس له علاقة مباشرة ببحثنا هذا .

---

(١) تهافت العلمانية ، ص ١٤٣ .

(٢) العلمانية لسفر الحوالي ، ص ٦٩٨.

المهم هو أن نطلع باختصار على رأى واحد من عدد من المؤرخين يرون أن المسار الذى تنتهجه الحضارة العلمانية المعاصرة سيقودها إلى التدهور والسقوط ، وقد أدى هذا الرأى ببعضهم إلى الإغراق في التشاؤم حيث لا مناص من أن يسلم الغربيون بأن زمن سقوط حضارتهم قد اقترب وأنه لا مفر (١) .

يقول **سبنجلر** :

وما مرحلة الحضارة الحالية إلا غمر المدينة المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحي ، فهى سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات الآبقة، تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله (٢) .

((ونحن نحب أن ننبه أننا حين نستشهد بكلام المفكرين الغربيين ونقتطف من كلامهم ، إنما نفعل ذلك أولاً : لأنه وافق ما عندنا من حق ، وثانياً : إنما نخاطب العلمانيين بلغتهم وليس ذلك إقراراً بصحة كل ما يقرروه ، فإن عندنا من كتاب الله وسنة رسوله ما يغنينا عما سواه بما رسم لنا الطريق ووضع لنا المسالك ونهاية ومصير كل من الخير والشر)) .

يقول **ولسون** :

إن ما يجب على الإنسان أن يفعله هو أن يحاول أن يفهم العالم ، وليس العالم ما يحيط به من كون فقط وإنما هنالك كون آخر خلف عينيه أيضاً ،

---

(١) تهافت العلمانية .

(٢) طه عبد الباقي سرور : دولة القرآن ، ص ٣٦ .

وكل ما يحتاج إليه الإنسان هو أن أن يفترض شيئاً ليعمل في ضوئه ، أن يؤمن بشيء ليمنحه ذلك هدفاً ، والمحك الأخير لقيمة هذا الإيمان هو أن يعمل .

لقد كان الإسكندر الأكبر يؤمن بشيء منحه قوة هادفة هائلة ، إذ آمن بأنه سيحكم العالم كله ، ولما حكم العالم جلس يتساءل يائساً : ماذا سأفعل الآن ؟ .

أجل ، هذا هو محك كل إيمان ، فإذا انتهى مفهوم الهدف عند حد معين فإنه ليس هدفاً حقيقياً ، إذاً ليس هناك هدف نهائي .

((ولكن الدين يمنح الإنسان الهدف النهائي ، الهدف الذى لا ينتهي حتى ولو عاش مليوناً من السنين ...)) .

إلى أن يقول : ((إن الإنسان ليس كاملاً بدون دين ...)) .

إن الدين هو مقياس البطولة ، ورمز حاجة الإنسان للكفاح من أجل الفهم وفشل الدين والحروب العالمية متلازمان حتماً .

ولكن عن أي دين يبحثون ؟ هل هو العودة إلى المسيحية أو العودة إلى الكنيسة؟ لنترك (**ولسون**) يحدثنا :

لقد ذهب (**نيومن**) إلى أبعد من حل شخصى ؛ إذ إنه أراد أن يحل مشكلة اللامنتمي ، لقد كان يدرك المشكلة العظمى مشكلة جعل الدين

صحيحاً متفقا مع الحضارة ، وكتب في موعظته المشهورة أنه بدأ يشعر بأن الكنيسة الكاثوليكية قد تشمل العالم ثانية وتستعيد السلطة التي كانت لها في القرون الوسطى ، وقد يكون هذا ممكناً من الوجهة النظرية ، ولكن غير محتمل في عالمنا هذا ، عالم القنبلة الهيدروجينية والأيديولوجيات المتناحرة .

إن المشاكل التي عالجها (**نيومن**) في القرن التاسع عشر ما تزال معنا في هذا القرن ، كما أن حضاراتنا آخذة بالانهيار التدريجي لأن تلك المشاكل ما تزال بلا حلول .

ويزيد **ولسون** النقطة الأخيرة إيضاحاً فيقول :

لقد حاولت فقط أن أبين أن بحثنا السابق اللامنتمي يشير الى أن حل القديس بولس (المسيحية) يعتبر أمراً غير مقبول بالنسبة لحضارة في منتصف القرن العشرين .

ترى ما هي حقائق هذه الحضارة ؟

إنها حضارة ذات تطور ميكانيكي عالٍ ورصيد فني كبير ، يسبقها تفكير حر استمر ثلاثة قرون ، ويصاحبها فراغ لا تعرف الحضارة كيف تنفقه .

ويستمر **ولسون** في توجيه نقده العميق للمسيحية وتقرير أنها لم تعد تملك القدرة على إنقاذ الإنسان والأخذ بزمام الحضارة فيقول : ((إنها الحقيقة التي أدركها (**ن . ي هولمه**) أنه بالرغم من أن دين العصور الوسطى

أفسح الطريق للإنسانية ، فإن الحل لا يكون بإعادة عقارب الساعة ؛ لأن الحضارة الغربية والكنيسة كانت الإمبراطورية الأولي إمبراطورية الإيمان الأعمى ، وحلت محلها إمبراطورية الفكر الحر .

وقد استطاع إنسان واحد في حضارتنا أن يدرك أن الفكر الحر يعود بنا إلى الدين إذا كان حراً وبعيد المدى بالفعل)) .

ثم يقول : إذا كان الدين يعنى الدين المغلق أي مجرد خرافات وطقوس ، فإن العقل يجعل وجوده مستحيلاً ويجب على الدين أن يصبح بالصورة التى يفهمه اللامنتمي بها مجموعة من الحقائق عن هدف الإنسان وعلاقته بالله ، وإذا استطاعت حضارة كاملة أن تفكر كما يفكر اللامنتمي فإن ذلك يعنى اختفاء اللامنتمي .

وتتلخص رؤية (**نيتشه**) في أن الأسطورة المسيحية لم تعد قابلة للتصديق، وأن هذه الأسطورة كان يجب أن يعترف دعاة الكنيسة صراحة أنها فقدت أخيراً قوتها المخلصة (١) .

ولنأخذ شهادة (**برنتن**) على فشل النصرانية وعدم صلاحيتها للعصر فيقول :

((كان العقل في الرجل العادى في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمة الجديد ، العقل الذى يسوق الناس إلى فهم الطبيعة ، وهذه هى كلمة

(١) جذور العلمانية ، ص ٧٢ .

السر الثانية الكبرى ، وبفهمه للطبيعة يطوع سلوكه طبقاً لها ، وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التى قام بها فى ظل أفكار المسيحية التقليدية الخاطئة وما يخالفها في الأخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة والعقل ، يبين أن الرهبانية تعني إسرافاً عظيماً في قدرة الإنسان الإنتاجية ، وأوضح من ذلك أن العقل يبين أنه من غير الطبيعي للكائنات البشرية صحيحة البدن أن تمتنع بتاتاً عن الاتصال الجنسي ، وأن التبرير الديني لمثل هذا السلوك غير الطبيعي كان هراء كهراء فكرة الشياطين التى تستولي على المجنون)) إلى أن يقول :

إن المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية ، فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يتبين أن تاريخ الخليقة الذي حدده الأسقف (آشر) بعام ٤٠٠٤م وتاريخ قصة الطوفان بعيد الاحتمال ، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى أن ينتظر الإنسان نمو المعرفة الجيولوجية ، خذ مثلاً :

مبدأ التثليث في المسيحية ، إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ ، فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد .

وينتقد **فولتير** العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الإله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على **(بولس)** الذى طمس المسيحية وحرفها .

ولذلك كان الإيمان بالمسيحية في نظره هو الاعتقاد بأشياء مستحيلة تستعصى على الفهم .

أما الخطيئة الأولى فيرفضها **فولتير** ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له سبحانه بالبربرية والتناقض وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته .

وينتقد (**فولتير**) الطقوس الدينية السبعة ،ومعلومات التوراة الجغرافية المحرفة .

فيقول عن معلومات التوراة الغير صحيحة : من الواضح أن الله لم يكن قوياً في الجغرافيا (١) .

ونحن نستغفر الله من هذا القول ، ولكن يد التحريف في الكتب السماوية السابقة ، والقول على الله بدون علم أوصلهم إلى هذا الكفر والشك في صحة الدين ، إنهم يبحثون عن دين جديد .قال عنه (**ولسون**) : لا يضيق بالعلم ، يتناسب مع التطور الحضاري ذات الرصيد الغني الكبير .

إنهم يريدون ديناً وصفه **ولسون** : يحدد لهم أهدافاً كبرى ، ديناً يمنح الإنسان هدفا نهائيا لا ينتهي حتى ولو عاش مليوناً من السنين .إنهم يريدون ديناً حراً بعيداً عن الإيمان الأعمى وتسلط رجال الدين، ديناً متفتحاً غير مغلق بعيداً عن الخرافات والطقوس الفارغة،كما قال (**هولمه**) .

إنهم يريدون ديناً لا يتصادم مع العقل ، ديناً يحدد ويوضح الحقائق الكبرى في حياة الإنسان عن هدفه وعلاقته بالله .

---

(١) العلمانية للحوالي ، ص ١٦٢ .

إنهم يريدون ديناً ينقذهم من جميع أمراض الحضارة ، وأن يتفاعل مع كل القيم بشكل مستمر ، ديناً يشغله روحياً ونفسياً دون أن يدعه يستسلم للفراغ والكسل .

إنهم يريدون ديناً ينتشلهم من أمراض الخواء الروحي واللاهدفية والقلق والسأم والتمزق النفسي والميكانيكية القاتلة .

إنهم يريدون ديناً يضبط نزواتهم وشهواتهم ويرشدها ، لا دينا يكبتها ويستقذرها ، ديناً يقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمانية وأشواقه الروحية .

إنهم يريدون ديناً يصون الحضارة والتقدم العلمي ولا يضيق بعلم صحيح أو تجارب نافعة ، دينا تتفق فيه حرية الفكر مع استقامة الدين .

إنهم يريدون ديناً يحترم النفس والبدن ويقدر الحياة لأنها وسيله إلى الآخرة ، ديناً يقول لهم : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [النساء : ٢٩] لا ديناً يقول لهم : (من أراد أن يخلص نفسها يهلكها) .

إنهم يريدون ديناً إذا أمر بشيء لا يقول العقل : ليته نهى عنه ، ولا ينهى عن شيء فيقول العقل : ليته أمر به .

ديناً تسود فيه الروح العلمية كل علاقة وموقف وشأن في الحياة .

إنهم يريدون ديناً يقول لهم : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[النمل: ٦٤]

﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٣] .

﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[الأحقاف: ٤]

إنهم يريدون ويبحثون عن دين يقول لهم : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص : ٧٧] .

لا ديناً يقول لهم : (مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله) مرقص ومتى .

إنهم يبحثون عن دين يقول لهم : **نظروا واعقلوا وتدبروا وسيروا . دين يقول لهم : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾** [الجمعة : ١٠] .

لا ديناً يقول لهم :(من أراد الملكوت فليترك ماله وولده وليتبعني) .

هل عرفتم عن ماذا يبحثون ويريدون ؟ إنهم والله يبحثون عن الإسلام وشريعة الله ولكنهم كما قال الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

إن الذي يحول بينهم وبين الإسلام ثقافة مزورة مغشوشة ، وتعصب أعمى ومعلومات مقلوبة ، وما ترسب من عداوات قديمة .

إن الذي يحول بينهم وبين الإسلام هم المسلمون أنفسهم الذين ينتسبون إلى الإسلام ثم تركوا رسالتهم وأهملوا شريعتهم التى فيها النجاة من جميع أمراض العصر وساروا وراء كل ناعق ، وبدلاً من أن يعتزوا بالله وبرسالته اعتزوا بغير الله فذلوا ، وطلبوا الهدى من غير الله فضلوا .

إن رجلاً مثل المفكر (**توينبي**) ينظر إلى العالم الإسلامي الذي يمكن أن يكون مصدر الحضارة الجديدة (بعد انهيار حضارة الغرب) كما قام بذلك في العصور السابقة عندما سقطت الحضارة الكلاسيكية يراه كما يقول وقد غدا كأي جزء من أجزاء العالم الصغير الآخر متغرباً ، أى أنه يمر بنفس التجربة الحضارية التى يمر بها الغرب لماذا ؟

يقول :

لأنه تخلى عن نظامه الوحيد الذي يمكنه أن ينقذه من مشاكله ومآسيه ، وراح يركض وراء تجارب الغرب الحضارية فيتبناها ويعيشها ، ومن ثم يجد نفسه مصاباً بنفس الأمراض التى أصيب بها الغرب : الخواء الروحي ، واللاهدفية ، والقلق والسأم ، والتمزق النفسي ، والميكانيكية التى تحول الإنسان إلى قزم ضئيل شقي ، وهكذا .

فالعالم متغرب الآن كله شرقه وغربه ، وهو متمزق ومريض الآن كله شرقه وغربه ، ومن ثم فإن أمل **توينبي** في إيجاد مصدر جديد للحضارة والشرق الإسلامي على ما هو عليه يدعو إلى التشاؤم .

إنهم ينظرون إلى الشرق الإسلامي على أن عنده ما ينقذ حضارتهم المعاصرة كما فعل في السابق ، وأن الذي يحول بين ذلك هم المسلمون

أنفسهم الذين راحوا يركضون كما قال (**توينبي**) وراء الغــرب وتجاربــه ونظمه وقوانينه حتى وجد نفسه مصاباً بنفس أمراض الغرب .

ولكن (**توينبي**) ورفاقه لو رأوا صحوة المسلمين في النصف الثاني مــن القرن العشرين لتجدد الأمل لديهم في أن الشرق الإسلامي سيقوم بالإنقــاذ كما قام في السابق بإذن الله .

عسى أن يفيق العلمانيون العرب من تقليد الغرب والإعجاب بحضــارته ونظمه، والمناداة بأن نسير في نفس الطريق والدرب الذي سار فيه الغرب .

إن كبار مفكريه يقولون : إنه لا مفر من انهيار حضاراتهم لأنها حضــارة عرجاء عوراء ، إنهم يبحثون عن حل لورطتهم فصل الدين عن الحياة .

إن **أينشتاين** يؤكد : أنه يكفي انقطاع جيلين متتابعين فقط في خــط العقول المتفوقة الميالة بصورة خاصة للعلوم الطبيعية لكي تنهار كل المشيدات القائمة في هذا العلم .

إن غرق المجتمعات الغربية في الرذيلة والفساد وفصل الدين عــن الحيــاة وجعل الحياة مجرد متع وشهوات ، ووصول الإنسان إلى الرفاهيــة الكاملــة والركون إلى الدعة والراحة سوف يؤدى إلى هذا الانقطاع الذى تحدث عنه (**أينشتاين**) .

ولقد قرأت لأحد الباحثين الأمريكيين قوله : إن الذي يدير عجلة الحيــاة في أمريكا هم الذين تعدوا سن الأربعين وهم الذين يقومون بمعظم الأعمــال المهمة والحيوية ، وأما جيل الشباب والشابات فإنهم غــارقون في مشــاكل

الحضارة ، وهذا نذير خطر ؛ لأنه يبين أنه سوف يكون هناك تدهور في الأجيال القادمة .

إنهم يبحثون عن دين جديد لا يعيد لهم مآسي العصور الوسطى من اضطهاد وقتل ومحاكم تفتيش ، ومذابح لا تتوقف .

دين لا يصادر العلم ، ولا يقف ضد حرية الرأي الصحيحة .

فهل تصلح المسيحية ؟ لقد رأينا رأى كبار مفكريهم ، وأنها لم تعد تصلح لإنقاذ تدهور الحضارة .

إنهم يقولون : إن حل القديس بولس يعتبر أمراً غير مقبول .

إنهم يقولون : إنها لم تعد تملك القدرة على إنقاذ الإنسان والأخذ بزمام الحضارة (١) .

إنهم يقولون : إن عودة الكنيسة مرة أخرى غير محتمل في عالمنا ، هذا عالم القنبلة الهيدروجينية والأيدولوجيات المتناحرة (٢) .

إنهم يقولون إن الدين – وهو العمود الفقرى للحضارة – قد يبس في الكنيسة لم يعد يقبل به اللامنتمون الذين غدوا عصاة (٣) .

وهذه بعض الشهادات الأخرى عن فشل الحضارة ، وفشل النصرانية للعلاج والإشارة إلى الإسلام .

---

(١) بولس . (٢) نيومان . (٣) ولسون .

يقول الأستاذ **أمرى ديفر** عن أسباب فشل النصرانية في كتابه (تحليل السلام) فيقول :

((إن القتل الواسع النطاق والتعذيب والاضطهاد والضغوط التي شهدناها في منتصف القرن العشرين لأدلة قاطعة على الإفلاس الكامل للكنيسة كوسيلة لترويض الانفعالات الإنسانية الغريزية ، ولتحويل الإنسان من حيوان إلى مخلوق اجتماعي معقول .

وإن بعث البربرية والاستعمال المطلق للقتل الجماعي في العالم بأسره يمكن اعتبارة كعمل لقلة من الأفراد الذين لا يؤمنون بالله ، أصابهم مرض التلذذ بالتعذيب (الساديزم) أو جماعة من المتعصبين للشنتوية اليابانية .

لقد قتل ملايين الأبرياء دون أن تهتز شعرة من جسم من قتلوهم ، كما نهب الملايين من البشر وجردوا مما يملكون ونفوا من بلادهم واستعبدوا ، وقد لقوا هذا المصير على أيدى نصاري انحدروا من أصلاب أسر نصرانية انتسبت منذ قرون إلى الكنيسة الرومانية الكاثولوكية أو إلى الكنيسة الشرقية البروتستانتينية ، ولقد ارتكبت فظاعات ومآسٍ مفزعة ومجردة من كل مظهر إنساني لا على يد ألمان ويابانيين فحسب بل على أيدى أسبانيين وطليان وبولنديين ورومانيين ومجر وفرنسيين وصرب وكروات وروس ، ولقد أغضت عن هذه الفظاعات وأغمضت عينها كل المجتمعات على اختلاف مذاهبها)) .

ويتابع **أمرى ديفر** :

((وليس قصدي هنا أن أقمم أو أصدر حكماً على أي دين متزل منظم لإغضائه عن هذه الانفجارات الوحشية الشبيهة بحيوانية إنسان ما قبل التاريخ ولكن مجرد حصول هذه النكسة أو وقوع تلك الجرائم قاطع الدلالة على عدم كفاية النصرانية في تكييف الأخلاق الإنسانية والتأثير عليها وحمل الإنسان على ترك ما توحي به غرائزه والاهتداء بالمثل الروحية .

إنه من العبث نكران أن المسيحية عجزت عن التسرب إلى نفس الإنسان وعن غرس جذورها في تلك النفس ، لقد اقتصر نجاحها فقط على خلق قشرة رقيقة من السلوك الخلقي وطبقة طفيفة من الحضارة لم تلبث القلاقل الاجتماعية التي شهدها القرن حتى مزقتها قطعاً)) .

ثم يتابع تحليله قائلاً :

((إن ألفى سنة لزمن كاف للحكم على جدوى طريقة بصرف النظر عن المذهب الذى تطبقه هذه الطريقة ، خلال هذه القرون العشرين خيل إلى الناس أن المسيحية نجحت في تأسيس الحيوان الراقد في صدر الإنسان وفي ضبط وتقييد الترعات والخصائص الإنسانية المضرة ، ولكن منذ حادت الكنائس عن رسالتها الإنسانية العالمية تحولت إلى منظمات وطنية مؤيدة أثر الوطنية الوثنية القبلية .

كم هي ضعيفة قبضة المسيحية في العالم الغربي ، ذلك لأنها من أجل عرض الدنيا تخلت عن تعاليمها الروحية مستسلمة أمام غرائز الإنسان البركانية التي تحطم بعضها بعضاً مالم يتداركها القانون ويلزمها حدها .

إن ما في المسيحية من قدسية وبواعث للحضارة هو توحدها وعالميتها أى تعاليمها القائلة : إن الناس خلقوا متساويين أمام الله وأنهم عبيد لإله واحد يحكمهم قانون واحد ، فتلك هى التعاليم المنطوية على الفكره حقاً في تاريخ الإنسانية .

وهذه شهادة طبيب نفسي أمريكي يسمى **هارولد فينك** كان يعالج مرضاه ضد أمراض العصر وقلقها ، ولكنه يكتشف أنه هو نفسه مريض ، لماذا ؟ لأنه كما يقول : لا يملك الإيمان الصحيح .

فهو يصرخ بأعلى صوته مستنجداً : إنني محتاج للدين لتنظيم حياتي ، ولكن أى دين ؟ أهو المسيحية المحرفة كلا إنه يرى أن إيمانها ناقص مشوه، يقول :

ومعركتنا مع رجال اللاهوت (رجال الكنيسة) لا ترجع إلى أنهم يقولون عن الله أكثر مما يجب ، بل لأنهم يقولون أقل بكثير مما يجب ، فأنا أبغي معرفة كل شيء عنه سبحانه وتعالى ، فأنا مثل الطفل الشره الذى يحصل في عيد الميلاد على لعبات ست فيبدى أنه صدم ؛ لأنه لم يحصل على كل ما في حانوت لعب الأطفال من لعب .

لذلك يعترف في جرأة نادرة :

((إن العالم الغربي لم يهضم بعد الديانات العظيمة التى نشأت في الشرق الأوسط ، إنه لم يخرج بعد من العصور المظلمة)) .

يقول الأديب الأمريكي الشهير أمرسن :

((أصغيت مرة إلى واعظ فأغراني بشدة إلى أن أقول: إنني لـــن أقصــد الكنيسة مرة أخرى فالناس كما ظننت يذهبون إلى ما ألفوا الذهاب إليه وإلا لما قصد أحد المعبد في المساء)) .

ويقول **أمرسن** : إن الدعوات بل العقائد الثابتة في كنائسنا أشبه بالبرج الفلكي في دندرة ، أو الآثار الفلكية عند الهندوس ، تنعزل انعزالاً تاماً عن أى شيء مما يوجد اليوم في حياة الناس (١) .

يقول الفيلسوف الإنجليزى **جود** :

سألت عشرين طالباً كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم :كم منهم مسيحي وبأى معنى من معاني الكلمة ؟ فلم يجب منهم إلا ثلاثة ، وقال سبعة منهم: إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبداً ، أما العشرة الباقين فقد صــرحوا أنهم يعادون المسيحية (٢).

هذا هو رأيهم في حضاراتهم وفي دينهم ، الحضارة ستنهار ولابد لأنهـــا قامت على غير أساس ، والدين الذى تقدمه الكنيســـة لا يصـــلح للعـــلاج والإنقاذ .

---

(١) العلمانية للحوالي .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي.

فماذا يقولون عن الإسلام ؟

لقد وقف (**تي.بي . أرفنج**) الأستاذ في جامعة (تنس) الأمريكية يخطب المسلمين في مدينة جلاسجو ببريطانيا حين زارها منذ سنوات يقول:

((إنكم أيها المسلمون لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً أو اقتصادياً أو عسكرياً في الوقت الحاضر على الأقل ، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تحبو على ركبها أمامكم بالإسلام ، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذى تحملوه والذى يتعطش إليه كل الناس في مختلف جنبات الأرض ، تعلموا الإسلام وطبقوه وأحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم الدنيا ويدين لكم كل ذى سلطان . أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون الإسلام فهماً عميقاً ويطبقونه على حياهم تطبيقاً عميقاً ويحسنون عرضه على الناس بأسلوب العصر وأنا أفتح الأمريكتين)) .

((أقول : سبحان الله ، إن الإسلام يحاربه أهله ويستبدلون الذى هو أدني بالذى هو خير ، ويريدون أن يعيشوا على مزابل التاريخ ، فهل هذا جنون أم سفه أم خيانة أم كل ذلك)) (١) .

يقول الكاتب (**كولن ولسون**) في كتاب (سقوط الحضارة) بعد أن انتقد علمانية الغرب وفشل المسيحية ،يقول (**ولسون**) : أما روح الثقافة الإسلامية وحضاراها فقائمة على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وأن الإسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام .

---

(١) مجلة المجتمع ، العدد ١٠١٦ – ٧ ربيع آخر ١٤١٥هـ ١٩٩٤/٩/١٣م.

الإسلام – الإسلام وحده – هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحـــدة تامة غير متنافسة ، والتاريخ الإسلامي حافل بأسماء الألوف من الأفذاذ الذين كانوا مناراً في العقيدة ومرجعاً في البحث العلمي ، ولاتجد مثل هذا الجمع في تاريخ غير المسلمين .

يقول المفكر الفرنسي الشهير **أندريه مـــارلو** : ((إن القـــرن الحـــادي والعشرين هو قرن الإسلام)) .

ويقول المؤرخ العالمي **هنرى دي شامبون** : ((لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب (المسلمين) في فرنسا لما وقعت فرنســـا في القرون الوسطى المظلمة ، ولما أصيبت بعظائمها ، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانيـــة قرون ، ونحن مدينون للشعوب العربية بكل ضمان حضارتنا في العلم والفن والصناعة وحسبها كانت مثال الكمال البشري في مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية)) .

ويقول العلامة **لافيس** :((كم من الأحزان والآلام والجنايات كان يمكن إنقاذ الإنسانية منها لو لم يقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم)).

ولقد هز كتاب السفير الألماني المسلم **مراد هوفمان** (الإسلام هوالبديل) ألمانيا كلها من حقائق حول قدرة الإسلام على أن يكون بـــديلاً للحضـــارة الغربية .

أما المستشرق الفرنسي **جاستون كارمن** فيقول : ((إن القرآن هو منبع الدين العقلي ودستوره ، وقد احتوى على أسس تستند عليها حضارة العالم ففي إمكاننا أن نقول :إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام، إن الحضارة وإن خمدت قليلاً فإنها لم تمت ولن تموت (يقصد الحضارة الإسلامية) ، بل إن أقطاب الحضارات يتهيبون يوم يقظتها ويعملون لهذا اليوم ألف حساب ، وكل الدلائل تشير إلي أن ذلك اليوم قريب - قريب جداً)) .

يقول عميد كلية الحقوق بجامعة **فيينا شيرل** في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧م : ((إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل مثل محمد (ﷺ) إليها إذ إنه برغم أميته استطاع قبل أربعة عشرة قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة)) .

ويقول المفكر الفرنسي **روجيه جارودي** : ((الإسلام يمكنه مرة أخرى أن يبعث الأمل في مجتمعاتنا الغربية التى خربتها الفردية وخربها النمو والذى يسير في العالم كله إلى الانتحار)) .

ويقول الفيلسوف البريطاني **برتداند راسل** محذراً الرجل الأبيض والغرب كله من الإسلام وحضارته ، يقول :

((دعوا اختلافكم ووحدوا صفوفكم ، وإلا فإن المسلمين سيرثون حضارتكم ، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يستطيع التوحيد بين الشعوب المختلفة في أمة واحدة)) .

وفي مدح الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل عصر يقول الدكتور **إيزاكونساباتو :**

إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية ، بل هى التى تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً .

نقول بعد ذلك : إن حضارة الغرب المادية بشقيها الشيوعي والعلماني أخذت فرصتها الكاملة ثم هى في طريقها إلى الانهيار النهائي .

وأنا أكتب في هذا البحث أصدر الرئيس الأمريكي كلينتون قراراً بالسماح بدخول الشواذ إلى الجيش الأمريكي وإلغاء القانون الذى كان يمنعهم .

والقانون القديم لم يكن يمنعهم لأن هذا عيب أو حرام لا ، إنما كان يمنعهم خوفاً من ابتزازهم وتسريب الأسرار العسكرية ، فلما انهار الاتحاد السوفيتي لم يعد هناك مبرر لمنعهم .

وفي نفس التوقيت يجتمع مجلس اللوردات البريطاني ويجعل السن الذى يتزوج فيه رجل من رجل هو ستة عشر عاماً،بدلاً من القانون القديم المتخلف الذى كان يجعل سن زواج الرجل من رجل واحداً وعشرين عاماً!.

هؤلاء هم حكامهم وعقلاؤهم وصلوا إلى درجة من الانحطاط والتدني لم تصلها أمة من قبل ، والعجيب أن الدول التى لا تستجيب أو ترفض أن تسير في نفس المنهج وعلى نفس الخط هي دول متخلفة ورجعية .

والأعجب من ذلك أن أناساً منا ومن جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ويزعمون أنهم مسلمون ، يقولون ويكتبون بلا حياء أننا إذا أردنا التقدم والحضارة فعلينا أن نحاكي الغرب في كل شيء ، في الخير والشر ، فيما نحب وفيما نكره ، فيما يحمد وفيما يعاب .

وإذا قلنا لهم : ولماذا لا نأخذ الأولى ونترك لهم الثانية ؟ لماذا لا نأخذ الخير ونترك لهم الشر ونأخذ ما نحب وندع ما نكره ونتمسك بما يحمد ونلفظ ما يعاب ؟ قالوا لنا : متخلفين رجعيين .

إن العقاب الإلهي لأمة وحضارة الشواذ قادمة ، وصدق الله حين قال عن قوم لوط : ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود : ٨١ ، ٨٢] .

وما هى من الظالمين ببعيد .

* * *

ولكن لماذا تمادت أوروبا في غيها ؟

لماذا لا تحاول إنقاذ السفينة من الغرق ؟

لماذا لا تحاول ترشيد المسيرة وإنقاذ الحضارة التى قال مفكروها الكبار : إنها حتماً ستنهار ؟

أقول : إن أوروبا تمادت في غيها وازدادت في غوايتها ؛ لأنها لم يكن عندها دين صحيح مقبول أو كتاب واضح معقول ترجع إليه إن هي ضلت

الطريق ، فقد يكون الضلال مؤقتاً ، ولكن يكتشف الإنسان أو الأمة من مصدر ثابت صحيح أنها قد ابتعدت عنه كثيراً أو قليلاً فترشد المسيرة وتعود إلى الطريق .

أما ألا يكون هناك ميزان ثابت ، ولا مرجع صحيح يعود إليه الناس أو الأمة فإنها تزداد في غوايتها وضلالها ، وتطلق لنفسها العنان لا تلوي على شيء .

ولقد عصم الله المسلمين من هذا الإشكال الخطير ، فجعل لهم مرجعاً وسنداً صحيحاً واضحاً ثابتاً يرجعون إليه إن ابتعدوا أو تشعبت بهم الأهواء.يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

ويقول سبحانه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
[المائدة : ١٥ ، ١٦]

ويقول رسول الله ﷺ : " أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ... " .

إنها معالم واضحة وصراط مستقيم محدد ، عليه رايات وأعلام ، وهذا هو السر فيما يسمى صحوة المسلمين اليوم ولأجل ذلك فإن المستقبل للإسلام .

أوروبا كرجل ليس له بيت ولا أسرة يأوى إليها بعد تعب العمل وكد النهار ، فأين يذهب فهو في الأرض حيران .

أما المسلم فعلى العكس ، له بيت وأسرة يأوى إليهم ، فمهما بعد عن مقره ومهما تفرقت به السبل فإنه يستطيع أن يعود إلى موطنه، أو بمعنى آخر: إن المسلم يأتي عليه زمان يبتعد عن دينه ويكون بينه وبين إسلامه كما بين المشرق والمغرب ، ولكن فجأة عاد والتزم واستقام لأن المرجع واضح صحيح.

وكذلك الأمة يأتى أحد حكامها فيظلم ويعطل الشريعة ويجور ، ولكن يأتي بعده من يعدل ويصلح ويعود بالناس إلى الشرع .

وكذلك يأتي عالم من العلماء فينحرف بالفتوى لهوى أو إرضاء لذي سلطان ولكن يأتي من يبين ويصحح ، ويوضح الخطأ من الصواب من خلال الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة .

وقد حدث هذا مراراً على مدار التاريخ الإسلامى ، فسيرة عمر بن عبد العزيز، وتصحيحه للمسيرة وعودته إلى النبع الصافى والحق والعدل معروفة . ووقفة أحمد بن حنبل فى وجه الفتنة والتمسك بالعقيدة الصحيحة مشهورة حتى فاء الخلفاء والعلماء ومن تبعهم إلى الحق وإلى عقيدة أهل السنة .

وجهاد شيخ الإسلام ابن تيمية ومحاربته للبدع والخرافات نار على علم حتى أصبح مرجعاً للعقيدة السلفية فى عصره وبعد عصره .

وتصحيح عقيدة أهل الجزيرة بدعوة محمد بن عبد الوهاب مما علق بالعقيدة من شرك وبدع كذلك .

وقبل ذلك احتل الصليبيون بيت المقدس لما يقرب من مائة سنة، وظنوا أن الأمر قد دام لهم واستقر ،وخرج من رحم الأمة صلاح الدين فحرر بيت المقدس ولقنهم دروساً فى فنون الحرب وأخلاقها .

وعندما أصاب المسلمين ضعف وفرقة ، قام المسلم التركى محمد الفاتح بإكمال المسيرة وفتح القسطنطينية ، وتجمع المسلمون تحت راية الخلافة ما يقرب من أربعمائة سنة ، وكانت دولة الخلافة بقيادة الترك الدولة العظمى فى العالم ، وعندما سقطت الخلافة فى بداية القرن بفعل المؤامرات الدولية ، وأصبح المسلمون كالأيتام على موائد اللئام ، حمل الدعوة الشهيد حسن البنا- رحمه الله - وغيره من الدعاة إلى الله فى وقت عم فيه اليأس والقنوط ، فملأت الصحوة الإسلامية وجه الأرض ، وانتشرت فى أرجاء الدنيا تبشر بالإسلام من جديد فأيقظت الهمم والضمائر ، وأصبحت هذه الصحوة المباركة أمل الأمة فى كل مكان .

وهكذا إلى أن تقوم الساعة تصحيح وترشيد ، وعودة إلى نبع صاف ومرجع واضح صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حفظه الله حجةً على العالمين إلى قيام الساعة .. فأنى للغرب هذا !!

ولأجل ذلك فإن المستقبل للإسلام .



الفصل الرابع

المؤامـــرة

المؤامرة

تعرض الإسلام لمؤامرات جبارة من الغرب المادي العلماني لكي يقتلعوه من قلوب المسلمين قديماً وحديثاً .

هذه المؤامرات لو تعرض لها دين آخر ما بقى منه شيء ، لقد بذلوا جهوداً مستميتة لكي يحلوا العلمانية بديلاً عن الإسلام ، وحتى ينتزعوا من المسلمين ورقتهم الرابحة وسبب مجدهم وعزهم وفخرهم ، وحتى نكون نحن وهم في الشقاء والتعاسة سواء .

لقد بذلوا الجهود ، وجيشوا الجيوش،وأنفقوا الأموال لكي نركب في سفينتهم ، ولكي نربط مصيرنا بمصيرهم ، فإذا غرقوا غرقنا معهم .

وصدق الله العظيم حين حذرنا منهم قائلاً سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [النساء : ٨٩] . ويقول سبحانه : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

ويقول تعالي : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢]

لقد احتلوا بلادنا احتلالاً مباشراً ،وبخبث ومكر كان أول شيء فعلوه هو تعطيل الشريعة الإسلامية ، وأحلوا مكانها قانون نابليون اللعين ، وأخذوا

ينقضون عرى الإسلام عروة عروة في الحكم والتعليم والمرأة والثقافة ووسائل الإعلام وغيرها .

صحيح ،كان الإسلام في هذا الوقت بلا روح وبلا فاعلية في قلوب المسلمين وحياتهم ، لكنهم خشوا من استيقاظه في النفوس وعودته حياً طرياً .

يقول (**كرومر**) الحاكم الإنجليزى في مصر في عهد الاحتلال :

((على الإنجليز مهمة كبرى هى محاولة ربط مصر بهم وصبغها بصبغتهم أو الصبغة التى نرضى فيما بعد أن تكون البلاد جزءا لا تتجزأ من الدولة البريطانية.كل هذا دون إثارة إحدى الدول ودون عنف ودون اتخاذ إجراءات قاسية ، ولكن بهدوء وصبر وأناة وبالمصريين المتربين تربية أوروبية)) [1] .

ويقول (**هاناتو**) عما فعله الفرنسيون في المغرب العربي خاصة في تونس: ((لقد تظاهرنا باحترام النظام السابق ، وحافظنا على مركز الباى حاكم البلاد وبالغنا في ذلك ، بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الأمور الإدارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا الفسح والتحويل عدد قليل من المواطنين التونسيين)) .

---

(١) جذور العلمانية ، ص ٥٩ .

ويستطرد (**هاناتو**) قائلاً :((إذن يوجد الآن بلد من بلاد المسلمين قـد انفصم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال ببعضها ، إذن يوجد أرض نشأت فيها نشأة جديدة وأنبتت في قضائها وإدارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالاً يقاس وأنموذجاً ينشد على منوالـه ألا وهي البلاد التونسية)) (١) .

يقول (**جان بول رو**) عن الهدف الحقيقي من الحملات الصليبية:((فقد قذف بملايين الأوروبيين إلى شواطئ الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك فإن عليهم أن يخربوا الشرق)) .

إلي أن يقول :

((لم يكـن القضاء على الدولة العثمانية المسلمة إلا مظهراً من مظـاهر الهجوم العام الذى يشنه الأوروبيون على الدول الإسلامية ، ومن جزر الفلبين إلى قلب إفريقيا عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم ، وفرض عليـه مفاهيمه في الوجود وطرق معيشـته وتفكـيره ومخططاتـه وتكتيكه)) (٢) .

إن كل مسلم يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال : لماذا أرادوا أن يغـيروا مفاهيمنا وعقيدتنا وطريقة عيشنا وتفكيرنا ومخططاتنا وتكتيكنا ؟ **لماذا يغـير كل هذا وهو كما يدعون ويزعمون سبب تخلفنا ؟**

---

(١) جذور العلمانية ، ص ٥٨ .

(٢) العلمانية للحوالي ، ص ٥٣ .

وهل كانوا في يوم من الأيام حريصين على تقدمنا أو نهضتنا وهم الذين يخططون لتدميرنا وإذلالنا ؟

إنهم يعرفون أن مفاهيمنا الصحيحة وطرق عيشنا القويمة يوم أخذنا بها صحيحة هي سر قوتنا وسبب نهضتنا وعزنا .

فلابد إذن أن نترك معتقداتنا ومفاهيمنا وطرق عيشنا ونقطع صلتنا بديننا وماضينا، وأن نفقد الذاكرة ، فإذا فقدنا الذاكرة ونسينا ماضينا ضاع حاضرنا ومستقبلنا ، وكان من السهل عليهم أن يقودونا إلي ما يريدون .

لقد كان أول شيء فعله الإنجليز في الهند هو إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول شيء فعله نابليون في مصر هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسي، وكذلك فعلوا في المغرب العربي .

وأول شيء فعله عميلهم **كمال أتاتورك** في تركيا هو فك الارتباط بين تركيا والإسلام ، وإلغاء كل مظاهر الإسلام ، والغريب أن يكون هذا بعد أن كانت تركيا دولة الخلافة ، وارتقت بالإسلام إلى الدولة العظمى فى العالم لما يقرب من أربعة قرون .

فما السبب يا ترى وهم المحتلون الذين يريدون إذلالنا ؟ إن الأمر واضح لكل ذى عينين ، ولقد أكملوا مخططهم بالعملاء والخونة لدينهم ولأوطانهم ؛ لأنهم قالوا: لا يقطع الشجرة إلا أحد فروعها .

ولنقرأ التقرير المفصل للقس (زويمر) رئيس مؤتمر القدس التنصيرى عن سبب الاستعمار وغايته وأهدافه :

((أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد المسلمين فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس ، لقد أديتم الرسالة التى نيطت بكم أحسن الأداء ، ووفقتم لها أسمى التوفيق وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه)).

إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام ، أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ، وثالث يبغي الوصول إلي غاية من الغايات الشخصية .

ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية بها في بلاد المسلمين ليست هى إدخال المسلمين في المسيحية ؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية .

وهذا ما قمتم به خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم الدول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة .

لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء.

إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى القبول بالسير في الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد ، إنكم أعددتم نشءاً في بلاد المسلمين لا يعرف الصله بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء .

وإن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج ، وباركتكم المسيحية،ورضى عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب)).

إن المسلم ليعجب من رجال الدين المسيحيين هؤلاء ، لماذا يريدون أن يقطعوا صلة المسلم بالله ؟ صحيح أنهم قالوا : حتى لا يكون للمسلم صلة بالأخلاق التى تعتمد عليها الشعوب في حياتها وتقدمها ، لكن من العجيب أنهم يقولون : إن الله يرضى بذلك ، أي أن الله يرضى بأن يقطع أكثر من ألف مليون مسلم صلته به سبحانه ، إنهم فشلوا في تحويل المسلمين إلى المسيحية ولما يئسوا من ذلك صرفوا جهودهم لإخراج المسلم من إسلامه .

ألا يدل ذلك دلالة واضحة وأكيدة أنهم يعتقدون أنهم ليسوا على شيء،وأن دينهم باطل ومحرف،وأن حقدهم على الإسلام والمسلمين يجعلهم يحاولون ويستميتون في إخراج المسلم من دينه.

كما قال إخوة لهم من قبل : إن دين المشركين الذي هو عبادة الأصنام أفضل من دين محمد ﷺ الذى هو عبادة لرب الأرباب .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٥١].

إن المسلم لا يود لغير المسلم أن يكون منحرفاً حتى ولو كان يهودياً أو نصرانياً.

لا يحب المسلم أن يرى يهودياً أو نصرانياً يزنى أو يشرب الخمر أو يأكل الربا أو يكفر بالله ، هذا إذا كانوا يؤمنون بالله أصلاً .

وهذا دليل على أن هذه الأمة كما قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية [آل عمران : ١١٠] ، أمة تحب الهداية والخير للناس جميعاً.

أما أن يسعى النصارى إلى إفسادنا ويكابدون في سبيل فك الارتباط بين المسلم وإسلامه أو بين المسلم وربه ، فهذا وحده دليل كاف على أنهم ليسوا على شيء .

إن الزنا محرم في شريعتهم ، ومع ذلك يريدون أن نقع فيه ويسعون إلى إفسادنا.

إن الربا محرم في شريعتهم ، ومع ذلك فنحن متخلفون إذا لم ننشأ البنوك الربوية فهي عماد الاقتصاد الحديث في زعمهم .

إن الكفر بالله محرم في شريعتهم ، ومع ذلك يحاولون ألا تكون لنا صلة بالله .

إن قرة عين اليهود والنصارى أن يروا المسلمين وقد خلعوا ربقة الإسلام وكانوا أي شيء إلا أن يكونوا مسلمين .

وهذا يبين في الحقيقة مدى العمالة والجريمة التى يرتكبها العلمانيون في بلاد المسلمين ، فهم الطابور الخامس الذى يمهد لأعداء الله ، هم بقايا الاستعمار وذيول الإجرام .

هم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق بل أخطر .

إنهم لا ينادون بأكثر مما قاله القس زويمر من فك الارتباط بين المسلم ودينه وخالقه ، فإن كان ولابد فبين أربعة جدران لا يتعداها، ومع ذلك فهم كارهون لذلك أيضاً ، فهم يؤذيهم صوت الأذان ، وصيام رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام .

كان على هؤلاء أن يرحلوا مع الاستعمار يوم رحل ، ولكنهم بقوا بأسماء المسلمين ولسانهم ليكملوا ما عجز الاستعمار عن تنفيذه .

ومع فرحتهم تلك ، ومع سرورهم وغبطتهم بالنتائج التى حققوها في بلاد المسلمين ، فإن الفشل ملازم لهم ، واليأس محيط بهم ، ويتوقعون في كل وقت ضياع جهودهم وفشل سعيهم وعودة المارد مرة أخرى .

يكتب (**هانوتو**) المستشرق الفرنسي ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسي تقريراً مفصلاً يعبر فيه عن خوفه من الابتعاث الإسلامي مرة أخرى وتوحد المسلمين .

يقول في تقرير طويل نقتطف منه قوله :

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجارى ، ثم قال :

ولكن لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية (إسطنبول) ومن جهة أخرى ببلدة فاس في المغرب الأقصى معانقاً الغرب كله ...

إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام بل صارت في صدر الإسلام وكبده ، حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين وهى تدير اليوم شؤونه وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يدافعون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال .

ثم يقول : ليس الإسلام في داخلنا فحسب بل إنه خارج عنا أيضاً، قريب منذ في مراكش ، قريب منا في طرابلس الغرب ، قريب منا في مصر ، وهو موجود وشائع في آسيا ، حيث لا يزال قائماً في بيت القدس ناشراً أعلامه على مهد الإنسانية مقر المسيح، ويحسب أنصاره وأشياعه في قارات العالم القديم بالملايين .

وقد انبعث منه شعبة في بلاد الصين وانتشر انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثوا أن يسيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مكان الدعاء (لساكياموني) وليس هذا بالأمر الغريب ، فإنه لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق، فهو الدين الوحيد الذى انتحله الناس زمراً وأفواجاً .

وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففي إفريقيا نرى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا، كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الإسلامي ، ثم إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان في أوروبا نفسها أعني في الآستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض إلي شطرين .

ثم يقول : وخلاصة القول : إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة يديرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التي يبغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ومتى اقتربوا من الكعبة من البيت الحرام ، من زمزم التي ينبع منها الماء المقدس من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة من الركن

الذى يقولون عنه أنه سرة العالم وحققوا بأنفسهم أمنيتـــهم العزيـــزة الـــتى استحثهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً وتقدمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقولة : بسم الله فيعم الســكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصــلين في تلــك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد : الله أكـــبر ، ثم تحنو بعد ذلك جباههم قائلين : الله أكبر بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

إلى أن يقول : لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجى الذى يجمعه جامعــة فكر واحد ، غريب عن إسلامنا في تونس والجزائر ولا علاقة له بـــه ، وإن كانت البلاد الإسلامية التى تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقــة دار إسلام وإنما هي دار حرب ، فإنها لا تزال عزيزة موقرة في قلب كل مســلم صحيح الإيمان والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حــول قفص حبست فيه صغارهـــا وربما كانت قضبان هذا القفــص ليســت متقاربة وليست بدرجة من المتانة بحيث تمنع من الدخول من بينها .

ثم يقول : يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيــات الفتوح وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم، نعم ليست لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكــن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة (1) .

---

(1) ندوات المحاضرات ، ص ٣٠٦ .

إنه تقرير شامل كتب في وقت كان الاستعمار فيه مسيطراً على بلاد المسلمين ،ولكن الإحساس بالفشل والخيبة لا يفارقهم حتى في عز انتصارهم.

تقول صحيفة لموند الفرنسية عن تركيا التي حاول الغرب أن يجعلها علمانية تماماً وتنسلخ من دينها بالكلية ((وبعد قرنين من الإصلاحات الرامية إلى طبع المجتمع التركي بالطابع الغربي ، وبعد نصف قرن من الحكم العلماني، هناك حديث الآن عن ابتعاث الإسلام مجدداً في تركيا التي كانت أوائل الدول الإسلامية التي فصلت بين السياسة والدين .

فالثورة الكمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك) كانت قد جعلت من العلمانية أساس الدولة وأساس التحديث فيها مما كان يعني أن الإسلام يجب أن يخرج من الحياة العامة ليحتفظ فقط بحق التأثير في ضمائر المتدينين ، وهكذا تحول الإسلام الذى هو دين وسياسة قبل كل شيء إلى مسألة خاصة بجرة قلم من جانب الدولة التي راحت تشرف عليه ، والواقع أن فصل الإسلام عن السياسة في بلد مسلم بصورة تامة ، كانت تجربة فريدة تقوم بها دولة علمانية قائمة على النمط الغربي وأدى هذا الوضع إلى انتقال الإسلام من موقع السيادة والسلطة إلى موقع الظل في الأوساط الشعبية خاصة في الأناضول وأصبح عرضة للقمع غالباً .

فالمدارس القرآنية والزوايا اعتبرت غير شرعية ابتداء من ١٩٢٥ ، على اعتبار أنها مراكز للتخلف والتآمر الرجعي ، ولكن هل انطفأ نور الإسلام مع ذلك في ضمائر الأتراك ؟ يبدو أن العكس هو الصحيح ومع اختفاء الإسلام في الطبقة الحاكمة تحول إلى مركز الخيارات السياسية في البلاد .

فالجمعيات الإسلامية والتعاليم الدينية استمرت تمارس نفوذها وسط الجماهير في الأناضول واكتسبت أنصاراً جداً .

إن حماس الجماهير التركية للرموز الإسلامية لا يرجع فقط إلى نشاط جمعية النقشبدى والقادري وغيرهما ، أو لكون الحكم معاديا للدين ، بل يرجع كذلك إلى رفض المجتمع التركي لأى نموذج اجتماعي يخرج عن الإطار الثقافي الإسلامي)) (١) .

ولكن رغم اليأس الذى ينتابهم من إخضاع المسلمين لعلمانيتهم وحضاراتهم وتقاليدهم فإن العدو ما يزال يتربص لنا بالمرصاد ، ومازال يقيس حركاتنا وسكناتنا وارتفاع أنفاسنا وانخفاضها وما يزال يندس في صفوفنا يبث كيده وينشر أحابيله ، وإن مثله فينا كمثل عدو مازال بعدوه حتى طرحه أرضاً مغمياً عليه ، ثم وقف منه موقف الطبيب يزعم أنه يعالجه ويرغب في إنقاذه فهو يجس نبضه ويقيس حركة تنفسه وما ينبغي من وراء ذلك أن يكون مطمئناً إلى أن هذا المغمى عليه ما يزداد إلا إغراقاً في سباته.

إنهم يحاولون إبعادنا عن ديننا وشريعتنا بشتى السبل ، برغيف الخبز مرة وبالإغراء مرة ، وبالقوة المسلحة أخرى ، وبالمكر والحيلة مرة ، وبالغش والخيانة مرة ، وبالانقلابات العسكرية إذا لزم الأمر ، وما حدث في الجزائر خير شاهد اختار الناس في انتخابات حرة الإسلام ودعاته ولكن الغرب

---

(١) الإسلام والعلمانية للقرضاوى .

العلماني لم يعجبه وهدد وتوعد بالتدخل وحرك أذياله وعملاءه حتى انقضوا على اختيار الشعب وإرادته فألغوها بالحديد والنار ولكن هيهات .. هيهات .

إن انزعاج الغرب من الإسلام يجعل رجلاً مثل الرئيس الأمريكى السابق نيكسون يقول بوقاحه وجراءة :

((يجب أن تتكاتف جهود الشرق والغرب للقضاء على الصحوة الإسلامية وكسر شوكة المسلمين إن كان لهم شوكة)) .

ويتعجب صاحب مقال الأهرام القاهرى الذى نقل هذا الخبر في عموده من جراءة هذا الوقح وعدم مبالاته بحكام العرب والمسلمين وعدم اهتمامه بمشاعر أكثر من ألف مليون مسلم ينتسبون للإسلام.

ولكن من أين لحضارة الشواذ أن ترضى عن الإسلام والمسلمين.

يقول الكاتب الصحفي جلال الدين الحمامصى في عمودة (دخان في الهواء) قبل وفاته بقليل : ((من الذى أعطى لأمريكا والغرب الحق في الاعتراض على تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر وبأى حق يتدخلون في تشريعاتنا واختيار أنظمتنا ؟)) .

وانتظر الرجل جواباً بالنفي من أحد المسؤولين أن أحداً لم يتدخل و لم يعترض حتى لقى ربه .

لقد تنادوا علينا وأخذ قادة الغرب يصرخون في شبه هستيريا : إن الخطر الشيوعي قد انتهى و لم يبق إلا الخطر الإسلامي وصحوة المسلمين ، إنهم يقولون : إن العرب يطمحون إلى إحياء عصر العرب الذهبى .

إنهم يقولون : إن العرب قد شقوا قروناً طويلة تحملوا فيها الظلم والعسف ولكن هل مات العربي ؟

كلا فالسامي ينام ولكنه لا يموت .

إن حضارة العرب قادمة ، ولا يستطيع السلاطين والأباطرة منع مجيئها ، ومتى جاءت فسيعجز التسيطر والفتح ورجال المال من الإلمام بها والسيطرة عليها (١) .

وتتحسر جريدة صهيونية وهى الجروزلم بوست فتقول :

((إن ظهور حركة اليقظة الإسلامية بهذه الصورة المفاجأة قد أظهرت بوضوح أن جميع البعثات الدبلوماسية ، وقبل هؤلاء جميعاً وكالة الاستخبارات الأمريكية كانت تغط في نوم عميق)) .

وفي الحقيقة أنهم لم يكونوا في نوم عميق ولكنهم كانوا متيقظين يخططون ويمكرون ، ولكن إرادة الله قاهرة ومن يغالب الله يغلب .

يقول البروفسير (شارون) وقت أن كان مستشار مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل السابق :

---

(١) جذور العلمانية ص ٩١ ، جزء من تقرير اللجنة الملكية البريطانية .

((ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام من حيث قدرته على اجتذاب الجماهير ، فهو يشكل القاعدة الوحيدة للحركة الإسلامية)).

وتبدى جريدة كمشكر الفانجلر التى تصدر في ألمانيا نصيحة قيمة إلى دول الغرب بألا يناطحوا الإسلام لأن التحول قادم لامحالة.

((إن الأحداث الأخيرة في تركيا وإيران وعودة نشاط الاتجاه الإسلامي في مصر وغيرها من الدول العربية يعطى الدليل على أن الإسلام وحدة ، وليست الدول الكبرى ، أو الأنظمة الموالية لها هو الذى يلعب الدور الرئيسى في منطقة الشرق الأوسط)) .

إن على الغرب أن يدرك الآن أن المستقبل القريب سيشهد تحولاً جذرياً في منطقة الشرق الأوسط لمصلحة الاتجاهات الإسلامية ، وعلى الغرب إذا أراد المحافظة على الحد الأدنى من مصالحه في الشرق الأوسط أن يبدى مرونة في تفهم مقاصد الاتجاهات الإسلامية التى تسعى للحصول على كيان جديد قوى يتلاءم مع الإسلام.

وفي تحليل نشرته الإيكونومست البريطانية جاء فيه : ((بعد أن توقف نهر النيل عن الفيضان ظن الناس أن عهد الفيضانات قد انتهى ، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً، فإن مصر تشهد اليوم فيضاناً عارماً ولكن من نوع جديد ذلك هو فيضان الإسلام المكافح بقيادة الإخوان المسلمين ، وليس بمقدور السادات ولا النميرى أن يوقفا المد الإسلامي في مصر والسودان)) .

وتقول صحيفة فورتش في مقال طويل : ((إن الاتجاه الـديني في مصر يرسخ أقدامه يوماً بعد يوم ، فالشباب المصرى مفتون بالصحوة الإسلامية الثورية ، كما أن الفتيات المصريات يبدين اهتماماً متزايدا بالإسلام ، وفي جامعة القاهرة يزيد عدد الطالبات الملتزمات بالزى الشرعي ، وقد يأتي يوم لا تبقى فيه طالبة مصرية واحدة إلا وقد ارتدت الزى الشرعى الإسلامي)) .

وفي مقال آخر تقول الجريدة :

((إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يعيشون في بحر متلاطم يسيطر عليه الإسلام ، وأن إسرائيل مهددة بالغرق والاندثار في البحر الإسلامي)) .

وتكتب صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية : ((إن الشباب المسلم في فلسطين بعد أن فقد الأمل في جميع الحركات العربية أصبح يصرخ بأعلى صوته لا عزة ولا قوة إلا بالإسلام .

إن المساجد التي كانت في السابق مقراً لتجمع الشيوخ والعجائز أصبحت اليوم مليئة بالشباب)) (١) .

إنهم يتوقعون تماماً ما نؤمن به يقيناً ، يتوقعون انهيار حضاراتهم ويتوقعون نهضة المسلمين ، وفيضاناً عارماً ليس كفيضان النيل ، ولكن فيضان الإسلام المكافح .

---

(١) القرضاوي : الإسلام والعلمانية .

إنهم يعلمون ويعلنون أنه ما من قوة في العالم تضاهى قوة الإسلام حتى قال رئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين السابق : ((إن الخطر الأول على دولة إسرائيل هو التطرف الإسلامي (يقصد الصحوة الإسلامية) ثم يأتى بعدها امتلاك العرب للسلاح النووى)).

فالإسلام أقوى من قنابلهم النووية وسلاحهم الفتاك ولذلك فهم يحاولون أن يبعدوا الإسلام عن المعركة ويخرجوه من دائرة المسلمين فليكونوا أي شيء إلا أن يكونوا مسلمين .

لكن لماذا يخافون الإسلام ؟

كثيرون يسألون هذا السؤال : لماذا الغرب والشرق يخاف الإسلام بهذه الصورة وبهذا القدر الرهيب ؟

لماذا كل هذا الحقد والاستماتة حتى لا يعود الإسلام وشريعته ؟

لماذا كل هذا الجهد المبذول والأموال المنفوقة في سبيل أن يبقى المسلمون على ما هم عليه من بعد عن الإسلام وتنحية شريعته ؟

لماذا ونحن المتخلفين الذين نعتمد على الغرب في كل شيء تقريباً في المأكل والملبس والسلاح ؟

لماذا وهم يقولون: إن سبب تخلف الشرق يرجع إلى الإسلام والدين ، فلماذا لا يتركوننا نتخلف وهم الحريصون على أن نظل متخلفين ؟

إن كثيراً من الذين ينتسبون إلى الإسلام يرون حرباً شعواء على الإسلام، ويرون أن هذه الحرب لا مبرر لها ؛ لأنهم يجهلون طبيعة المعركة بين الإسلام والطاغوت .

أقول :إن هناك أسبابا كثيرة لهذه الحرب ، لكن من أهم هذه الأسباب - من وجهة نظرى في الوقت الحاضر بالذات - هو إفلاس العلمانية وخيبة أمل الشعوب المتقدمة في الغرب وشقوقهم بغير دين صحيح وبغير منهج يتسق مع الفطرة - كما مر بنا من شهادات . .

إن فشل الحضارة الغربية فى إسعاد أهلها جعل الناس يتململون منها ويبحثون عن مخرج ، وبما أن الدين الذى ينتمون إليه لا يشبع رغبتهم ولا يصلح للخروج من الورطة .

إذاً لابد أن يبحثوا فرادى أو مجتمعين عن حل ، وبما أن العالم كله متغرب ويعاني من نفس المشكلة التى يعانون منها ، وإن كان بنسب متفاوتة، فإن في هذا عزاء لهم وحجة في أيدى الذين يسوقونهم بألا فائدة ولا مخرج وإنما هو طريق كتب علينا أن نسير فيه حتى نهايته .

فلو وجد هذا النظام وهذه الشريعة وهذا الدين الذى يتناسق مع الفطرة والذى يلبى وينسجم مع إنسان العصر وأصبح واقعاً في حياة المسلمين ممارسة وتنظيماً وسلوكاً وقانوناً وعادات وتقاليد وأخلاقاً لوجد الغربيون ضالتهم التى يبحثون عنها وكان الشرق كما قال (توينبي) هو مصدر الحضارة الجديدة .

يقول أحد الدعاة بحق : ((إن الإسلام محجوب عن الغرب بستار كثيف من أعمال المسلمين)) .

ويقول أحد الكتاب الغربيين في كتاب (الله أو الـدمار) :((لـو أن العرب عرفوا قيمة الإسلام لحكموا العالم إلى قيام الساعة)) .

لكن الذى يراه الغربي حين يزور بلاد المسلمين ، أو حين يسمع ويشاهد أنهم يحاكونه ويقلدونه ويحاولون أن يصلوا إلى بعض ما وصـل إليـه فـلا يستطيعون وفي نفس الوقت يرى الإعجاب ببلاده وحضارتها رغم التعاسـة التى يحس بها والشقاء الذى يعيش فيه ، فيكون هذا أكبر عون على ما هـو فيه، وفي نفس الوقت ينصرف عما عندنا من دين .

إن الإسلام نور وهداية واستقامة ، فإذا جاء الحق زهق الباطل .

إذا جاء الإسلام وعاد – وهو إن شاء الله عائد – فسيجمع الغرب أوراقه وينكمش ويعلم أن السباق قد دخل فيه فارس جديد قديم لا قبل له به .

وهذا الذى نقوله قالته اللجنة الملكية البريطانية في تقرير لها ، تقول فيه :

((إن حضارة العرب قادمة ، ولا يستطيع السلاطين والأباطرة منع مجيئها ومتى جاءت فسيعجز التسيطر والفتح ورجال المال عن الإلمام بها والسـيطرة عليها)) .

ولتوضيح الفكرة نضرب مثلاً من واقع الناس اليوم .

إن انهيار الشيوعية والمعسكر الشرقي عموماً لها أسباب كثيرة، ولكن من أهم هذه الأسباب بعد إلحادهم وكفرهم بالله هو وجود المعسكر الغـــربي في المقابل الذى يوجد فيه من المزايا التى لا تتوافر في المعسكر الشرقي ، فمثلاً :

الشيوعية زعمت أنها قامت من أجل إنصاف الطبقة العاملة ومع ذلـــك فالعامل في الغرب أفضل منه في الشرق في كل شيء ، مع وجود الحريات في الغرب والكبت في الشرق ، ووجود الرفاهية في الغرب والحرمان والبؤس في الشرق ووجود الدافع للعمل والإنتاج في مقابل الإهمال والتســيب ، وغـــير ذلك من المزايا .

كل هذا جعل المقارنة ليست في صالحهم من أى وجه مما عجل بالانهيار .

ولوكانت الكتلة الشرقية وحدها في العالم لكان من الممكن في قدر الله أن تبقى لبعض الوقت .

هذا المثال ينطبق على الإسلام والغرب ، فعندما يعود الإسلام وشـــريعته ستكون المقارنة بين الإسلام ونظامه وبين الغرب ونظامه ليست في صالحهم من أى وجه من الوجوه ، وسيصلون إلى النتيجة التى وصل إليها المعســـكر الشرقي .

إذاً لابد من المقاومة ، ولابد من تخدير المارد ، حتى لا يفيق لأن الغـــرب يدافع عن وجوده .

كما أنه يوجد سبب آخر لا يقل أهمية ، وهو أن عودة الإسلام سيجعل المسلمين يفكرون ويعملون بطريقة مختلفة تماماً ، فمثلاً :

إن الإسلام يرفض لأتباعه أن يكونوا ذيولاً وإمعات ، أو قردة مقلدين ، بل يأمرهم بالنهوض وعدم الرضوخ ، ويقوى هممهم ويفجر طاقاتهم ، حتى تكون لهم شخصيتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم المستمدة من دينهم .

إن الإسلام يرفض لأتباعه أن يكونوا ضعفاء أو أذلة ، ويريدهم ويحثهم أن يعيشوا كراماً أعزة .

إن الدين الإسلامي يرفض لأتباعه أن تهضم حقوقهم ، أو أن يتنازلوا عن مقدساتهم ، أو تنهب ثروات بلادهم .

إن الإسلام لا يرضى لأتباعه أن يعيشوا على هامش الحياة يكتفون فيها بالفرجة والمشاهدة ، أو الاستهلاك والاستمتاع ، ولا يرضى لهم بأقل من القيادة والريادة .

إن الإسلام يرفض كل صور الهزيمة التي يعيش فيها المسلمون اليوم ، سواء كانت عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو نفسية .

بالإضافة إلى أن انحراف الغرب اليوم وشذوذه ، والمجون الذى وصل إليه من القمة إلى القاعدة ، يجعل من طبيعته كراهية كل المبادئ النظيفة والقيم السامية التي يدعو إليها الإسلام ، على طريقة إخوانهم ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[الأعراف: ٨١] إن مبادئ الإسلام واستقامته وعدله ونظافته لا يجتمعان أبداً مع شذوذ وطغيان الغرب .

والغرب يعلم كل ذلك ويعلنه ولا يخفيه ، إذاً لابد من المقاومة ، ولابـــد من الحرب على الإسلام حتى تستمر سيطرة الغرب .

بهذا يزال الإشكال فى رؤوس كثير،ممن ينتسب إلى الإسلام ، الذين يرون حرباً شعواء تستخدم فيها كل أنواع الأسلحة لسحق الإسلام والمسلمين،ومع ذلك فهم يعتقدون - لأنه قد لبس عليهم - أن هذه الحرب لا مـــبرر ، ولا داعى لها على الإطلاق .

الفصل الخامس

المبـشرات ونهاية إسرائيل

المبشرات ونهاية إسرائيل

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

[الصف : ٨ ، ٩]

مر الإسلام والمسلمون في بعض الأوقات بفترات حرجة وعصيبة،وكان الإسلام دائماً يخرج منها منتصراً قوياً ؛ لأنه كما قال رسولنا ﷺ : " إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه " .

تعرض المسلمون في مكة - وهم قلة مستضعفة - لصنوف من العذاب والاضهطاد فوق طاقة البشر ، ويأتى خباب بن الأرت - ﷺ - بعد أن لقى من المشركين شدة فيقول للرسول ﷺ وقد استبطأ نصر الله وهم المؤمنون به ، فيقول : يا رسول الله ، ألا تدعو لنا ألا تستنصر لنا ، وكان رسول الله متوسداً بردة فى ظل الكعبة فيجلس الرسول غاضباً ويقول : " ألا إن من كان قبلكم - أى من الأمم السابقة - يمشطون بأمشاط الحديد وينشرون بالمناشير ما يصدهم ذلك عن دينهم ، والذى نفس محمد بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " .

ويخرج سراقة بن مالك وراء رسول الله ﷺ وصاحبه وهما مهاجران ، يريد أن يفوز بجائزة قريش لمن يأتي برسول الله حيـــاً أو ميتـــاً .

وبعد أن يلحق سراقة برسول الله وصاحبه وتغوص قوائم فرسه في الرمال ويعلم سراقة ويتأكد أن رسول الله ممنوع ، ولن يقدر على الوصول إليه ، فيطلب الأمان على أن يرد المشركين عن طريقه.

ثم يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو المطارد المهاجر قائلاً : " كيف بك يا سراقة وقد ألبسك الله سواري كسرى ؟ " فيقول سراقة متعجباً : ســواري كسرى بن هرمز ؟ ! فيقول له رسول الله : " نعم سواري كســرى بــن هرمز "، فيقول سراقة : فوقع في نفسي أن ذلك واقع .

ويعرض رسول الله الإسلام على عدي بن حاتم ، فيقول لــه : " لعلــك ياعدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما تراه من حاجــة المســلمين وفقرهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .

ولعلك ياعدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى مــن قلــة المسلمين وكثرة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف أحداً إلا الله .

ولعلك ياعدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك تــرى الملــك والسلطان في غير المسلمين ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليــهم ، وأن كنــوز كسرى بــن هرمــز قــد

صـــارت إليهم " فيقول عـــدى (متعجباً) : كنوز كسرى بن هرمـــز ! ، فيقول رسول الله ﷺ :" نعم كنوز كسرى بن هرمز " .

يقول عدى : ولقد عشت حتى رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً حتى تبلغ هذا البيت ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى وأنفقت في سبيل الله،وأحلف بالله لتكونن الثالثة أخبرني بذلك رسول الله ﷺ .

ويشاء الله أن تكون الثالثة في عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث فاض المال في عهده حتى أن مناديه ينادى على من يأخذ أموال الزكاة من فقراء المسلمين فلم يجد أحداً ، وصدق رسول الله وبر عدى بقسمه .

وللإنسان أن يتمثل الموقف مع خباب وسراقة وعدى ، فهذا مســتحيل بمقياس البشر،ولكنه يتحقق في دنيا الناس وفي واقع الحياة ويعيش خباب حتى يرى الراكب يسير من صنعاء إلى حضر موت لا يخشـــى إلا الله ، ويعـــيش سراقة حتى تفتح بلاد كسرى ويلبسه عمر بـــن الخطـــاب ﷺ ســـوارى كسرى،ويعيش عدي حتى يرى كنوز كسرى تنفق في ســـبيل الله ، ويـــرى المرأة تخرج من القادسية ليست في جوار أحد إلا الله تطوف بالبيت لا يتعرض لها أحد،ويقسم ﷺ أن الثالثة ستتحقق ولابد ، لأن الرسول عليه الصـــلاة والسلام قد أخبر بها .

ولقد تعرض الإسلام في عصرنا لهزات ومؤامرات أفقدت كثيراً من الناس الثقة به ، حتى أن البعض نادى أنه لكي يعيش الإسلام فلابد أن يلحق بأحد

الأيديولوجيات الكبرى ، فإما أن يكون إسلاماً رأسمالياً أو إسلاماً ماركسياً أما الإسلام فقط فليس هذا عصره وليس هذا أوانه !! .

ولقد مر بنا كيف كان حال الإسلام والمسلمين في بداية هذا القرن حتى أظهر أعداء الله تفاؤلهم بأن هذه الأمة ستلفظ أنفاسها عما قريب .

ولكن المؤمنين الصادقين الذين ينظرون بنور الله يخرجون من هذه الظلمة القاتلة وهذا الحصار الحديدى الرهيب وهم واثقون بنصر الله وأن الباطل في زهوه وانتفاشه عما قريب سيزول .

ويكتب شهيد الإسلام (سيد قطب) كتاباً سماه :(المستقبل لهذا الدين) في وقت كانت الماركسية في عنفوانها وأعداء الله لهم السيطرة الكاملة حتى اعتقدوا أن الأمر قد استقر .

ولا يمضى وقت طويل حتى تنهار الأيديولوجيات وتبرز الصحوة الإسلامية في كل مكان كبديل لكل الجاهليات التى سادت بلاد المسلمين .

إن رسول الله الذى بشر خباباً وأثلج صدره ، وبشر سراقة بن مالك وثبت قلبه، وبشر عدي بن حاتم فأقبل على الإسلام بعد أن عزم أمره .

إن رسول الله الذى بشر هؤلاء ليبشرنا نحن ونحن في القرن العشرين ولازال الباطل منتفشاً ، ولازالت الصحوة وشباب الإسلام مطاردا ولازالت بلاد المسلمين في معظمها تحت السيطرة الفكرية لأعداء الله .

أقول : إن رسول الله يبشرنا بعودة الإسلام والفتوح حتى يغلب الإسلام كل ماعداه وحتى يعود قوياً وإن رغمت أنوف أهل الباطل : ولا نقول لهـــم إلا ما قاله الشاعر :

يا ناطح الجبل الأشم أملاً في تصدعه

أشفق على الرأس لاتشفق على الجبل

يا دعوة الحق قصى ما لقيت

فكم يؤذى الهدى ويعان الباطل البورُ

وكم زعيم غدى نحوي لينطحني

فعاد من صخرتي والقرن مكسور

* * *

وإليك أخا الإسلام – بعض المبشرات من سنة الرسول ﷺ :

الحديث الأول :

عن أبي قتيل عن عبد الله بـــن عمرو بن العاص وقد سئل : أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية (روما) ، فدعـــا عبد الله بصندوق لـــه حلـــق فأخرج منه كتاباً قال : (فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله أى المدينتين يفتح أولاً قسطنطينية أم روميه فقال ﷺ :" مدينه هرقل أولاً " يعنى قسطنطينية).

أخرجه أحمد والدارمي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قال. (السلسلة الصحيحة للألباني).

هذا الحديث الصحيح بشرى للمسلمين فى عصرنا بعودة الإسلام ، وهو معلم من معالم النبوة ، فقد قاله الرسول ﷺ وبين المسلمين وبين تحقيق ذلك أهوال ... وأهوال ... وتقف بين تحقيق ذلك إمبراطوريات ضخمة قوية .

لقد كانت القسطنطينية عاصمة وقبلة المسيحية وبها كنيستهم العظمى ، وهى تقع فى موقع فريد بين أهم قارات العالم (آسيا ، وأوروبا) ، وهى محصنة تحصيناً قوياً ويقف البحر مانعاً وحصناً لها ، ولقد حاول المسلمون فتحها مرات عديدة تحقيقاً لنبوءة الرسول الكريم ولكنهم فشلوا فى زمن معاوية وبعده ، وكانت هذه المدينة العظيمة على موعد مع قائد من قواد الترك المسلمين ليحقق نبوءة رسول الله ﷺ ، وتفتح المدينة أبوابها للقائد المسلم ونداء الله أكبر يملأ الآفاق ، ودموع الجنود تجرى مستبشرة بالفتح وفرحة بنصر الله .

إن فتح القسطنطينية بعد أكثر من ٨٠٠ سنة من قول الرسول صلي ﷺ بفتحها ، إيذاناً بتحقيق الشطر الثانى من النبوءة النبوية وهو فتح روما التي هى عاصمة إيطاليا اليوم وفيها مقر البابوية التى نقلت إليها بعد فتح القسطنطينية .

ولقد يظن بعض ضعاف الإيمان أو المشككين وأهل النفاق أن هذا درب من دروب المستحيل ، فأوروبا كلها تحميها ومن ورائها أمريكا ، ومن

يستطيع اليوم أن يهزم هذه القوى الجبارة التى تملك أسلحة تستطيع أن تفنى بها العالم كله وليس المسلمون فقط ، ونحن نقول : إن الشطر الأول من الحديث (وهو فتح القسطنطينية) كان بالمقاييس المادية الموجودة فى عصر النبوة أكثر استحالة مما هو موجود ومتوفر اليوم ، ولا ينقص المسلمون مما كان موجوداً إلا العودة الصادقة الصحيحة للإسلام والتمسك الصحيح بعقيدته ومنهجه للحياة ، وساعتها ستركع أوروبا على أقدامها أمام حضارة الإسلام كما فعلت أول مرة .

ثم إن الفتح الثانى لا يشترط فيه أن يكون بالوسيلة التقليدية وهى الغزو العسكرى ، ولكن من الممكن أن يكون له أسباب أخرى كأن تنكشف الحقيقة لآباء الكنيسة فيدخلون فى الإسلام كما حدث لملك الحبشة فى عهد رسول الله ﷺ ، ولقد هم ملك الروم بالإسلام لولا الخوف على ملكه وسلطانه ، وقد يكثر دخول أهلها فى الإسلام حتى يكون لهم الغلبة والسلطان،كما يحدث الآن فى كثير من بلدان أوروبا ، وقد تنهار حضارتهم وتتفسخ بفعل عوامل الانحراف المتفشية فيهم فتسقط بدون قتال ، إلى غير ذلك من الأسباب ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وعلى أى حال فإن تحقق الفتح الثانى يستدعى عودة الخلافة الراشدة إلي الأمة المسلمة ، وهذا ما يبشرنا به رسول الله ﷺ .

الحديث الثاني :

قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى (أى جمع وضم) لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها " .

رواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه وأحمد وابن ماجه .

وفي الحديث بشارة بأن الإسلام وملكه سوف يبلغ المشرق والمغرب وهى أقطار الأرض (١) .

الحديث الثالث :

قال رسول الله ﷺ : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، لا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز به الإسلام وذلا يُذل به الكفر " .

(رواه ابن ماجه وجماعة وصححه الألباني) .

ولاشك أن تحقيق هذا الانتشار للإسلام فى الحواضر والبوادى التي بلغها الليل والنهار ، بل دخوله كل بيت بعز المسلم وذل الكافر .

إن هذا الانتشار وهذه العزة والكرامة للإسلام والمسلمين لهى بشارة من الرسول ﷺ بعودة الإسلام قوياً غالباً على كل قوى الكفر والطغيان .

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني .

ورغم الانتشار السريع والكبير للإسلام إلا أن هذه البشـــارة لم تتحقـــق كاملة بعد .

الحديث الرابع :

يقول رسول الله ﷺ :" تكون النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا أراد أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون مـــا شـــاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً (وراثياً) فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبريـــاً (أى حكما ديكتاتوريا) ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعهـــا ، ثم تكون خلافه على منهاج النبوة " ثم سكت. (صححه الألباني) .

هذا الحديث الجليل العظيم الذى هو معلم آخر من معالم النبوة لرســـولنا الكريم الذى ما قال إلا صدقاً ، وما أخبر إلا بالحقيقة لأنه ﴿ **مَا يَنْطِقُ عَـــنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

لو تأملنا هذا الحديث لوجدنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قسم التاريخ الذى يأتى بعده إلى خمسة أقسام عاصر رسول الله ﷺ منها واحـــدة فقط وهى مرحلة النبوة وأخبر عن المراحل الأخرى :

المرحلة الأولى : وهى مرحلة النبوة وتبدأ من بعثة الرسول الكريم حـــتى وفاته صلى الله عليه وسلم ، وهى مرحلة قائمة بذاها لها خصائصها ومميزاها، وهنا نرى أن رسول الله يخبر عن واقع رآه وعايشه .

المرحلة الثانية : وهى مرحلة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ، وتبـــدأ هذه الخلافة بولاية أبي بكر ﷺ التى استمرت ما يقرب من سنتين ، ثم ولاية عمر بن الخطاب ﷺ والتى استمرت ما يقرب من عشر سنوات ثم بـــايع المسلمون عثمان بن عفان ﷺ واستمرت خلافته ما يقرب من اثني عشـــرة سنة ، ثم جاءت مرحلة على بن أبي طالب - كـــرم الله وجهـــه - والـــتى استمرت ما يقرب من ست سنوات ، وعندما قتل بايع المسلمون ابنه الحسن فاستمر الأمر على ذلك ستة أشهر حتى تنازل لمعاوية عن الخلافة ، وهو العام الذى سمى بعام الجماعة لتوحد المسلمين فيه تحت راية خليفة واحد . وهنـــا تنتهى مرحلة الخلافة الراشدة التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وســـلم فيما رواه أحمد : " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً " أو كمـــا قال ﷺ .

وعندما نجمع سنوات الخلفاء الراشدين نجد مدقا الثلاثين سنة كما أخبر رسول الله ﷺ .

ثم تبدأ المرحلة الثالثة : وهى الملك العضوض (أى الملك الـــوراثى) ، وتبدأ بحكم معاوية ﷺ الذى جعل الخلافة من بعده فى ابنه يزيـــد ، فبـــدأ بذلك الحكم الوراثى أو (الملك العضوض) ، وهى بداية الدولـــة الأمويـــة والتى ظل خلفاء بنى أمية يتوارثونها ما يزيد عن سبعين عاماً ، حتى انتـــزع الحكم منهم العباسيون فتداولوا الحكم بينهم أيضاً وأصبح هو الآخر ملكـــا عضوضا يتوارثه بنو العباس .

ثم جاءت الدولة العثمانية التركية والتى كانت تعتبر امتداداً لمرحلة الملـــك العضوض ، حيث كان آل عثمان يتوارثون الحكم فيما بينهم كبنى أمية وبنى العباس ، فبقيت ما يقرب من أربعمائة سنة ، وحدت خلالها الدول الإسلامية تحت رايتهم ، وكانت فى بدايتها دولة فتيـــة قويـــة فتحـــت فى عهـــدها القسطنطينية تحقيقاً لنبوءة الرسول الكريم كما مـــر بنا ، إلى أن تآمرت عليها الدول الغربية الكبرى واقتسمت أملاكها واحتلت غالب بـــلاد المســـلمين ، وإلى هنا وتبدأ مرحلـــة الحكم الجبرى (الديكتاتورى) فى معظـــم بـــلاد المسلمين . والتى لا يزالون يعيشونها إلى الآن تحت مسميات مختلفة .

وهي المرحلة الرابعة : والتى بدأت بالاستعمار الغربى لبلاد المسلمين ولا يختلف أحد أنه كان حكماً جبرياً ، إلى أن اضطروا للخروج تحت ضـــربات المقاومة والتى كان يقودها العلماء المخلصون ومن ورائهم الجموع المؤمنـــة ، ولما تيقنوا أنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى المقاومة وتحمل الخسائر الفادحـــة نتيجة المقاومة ضدهم ، كان من مكرهم أن يخرجـــوا ويســـلموا الـــبلاد للعلمانيين ولمن تربوا فى حجرهم وتحت وصـــايتهم والمـــؤمنين بأفكـــارهم ومبادئهم ، ولذلك نلاحظ أن الاستعمار لم يخرج من بلاد المسلمين إلا بعد أن تأكد تماماً أن جميع أقطارها أصبحت فى يد العلمانيين ، وضمنوا بـــذلك نتيجتين : الاستمرار فى تنحية الشريعة ، وضرب الحركات الإسلامية، وكان ذلك امتداداً للحكم الجبرى .

ثم تكون المرحلة الخامسة بعد الحكم الجبرى : التى أخبر بها رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ، وفي الحديث بشارة بعودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بعد الحكم الجبرى ، ولعل بروز الصحوة الإسلامية في طول بلاد المسلمين وعرضها حتى وصلت إلى قلب أوروبا وأمريكا لهو دليل على قرب تحقق هذه النبوءة ، وإن غداً لناظره قريب .

الحديث الخامس :

يقول رسول الله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى ورائي تعال فاقتله) (رواه مسلم)) .

إن حديث قتال اليهود في آخر الزمان علامة أخرى من علامات النبوة فبعد انتهاء أمر اليهود في المدينة ورحيلهم إلى بلاد الشام لم تقم لهم قائمة حتى القرن الثالث عشر الهجرى حين بدؤوا يتجمعون ويخططون لإنشاء وطن لهم ، وحين استغلوا ضعف المسلمين وتفتتهم إلى دويلات واستعمار بلادهم ، هنا رفعوا رؤوسهم وحاولوا مع السلطان عبد الحميد أن يعطيهم فلسطين وأغروه بالذهب والفضة ، ولكن التاريخ يقول: إن الرجل رفض وأبى ؛ لأن فلسطين ملك لكل المسلمين وليست ملكاً خاصاً به يتصرف فيه حيث يشاء، من هنا بدأت المؤامرات على دولة الخلافة من اليهود تساندهم الصليبية العالمية حتى نجحوا في تفتيت دولة الخلافة وإقامة جمهورية علمانية على يد رجل من يهود الدونمة الذين أسلموا ظاهراً للكيد للإسلام والمسلمين .

*   *   *

والتاريخ بعد ذلك معروف والمأساة مشهورة حتى قامت لليهود دولة .

إن فضل الله على هذه الأمة أن يجعل نهاية اليهود ونهاية شرهم على أيديهم ليتنفس العالم الصعداء ، ولتعود الشعوب تفكر في جو صحى بعيداً عن إغواء اليهود.

إن معركتنا مع اليهود معركة مصيرية ، نكون أو لا نكون ، إنها ليست مسألة وطن إنها أكبر من ذلك بكثير .

إن أكثر من ألف وأربعمائة سنة لم تنسهم خيبر ، ولذلك عندما احتلوا القدس سنة ١٩٦٧م هتف الجنود اليهود :

هذا يوم بيوم خيبر ، يالثارات خيبر .

وأخذوا يهتفون :

حط المشمش على التفاح دين محمد ولّى وراح

وتعالت صيحاتهم : محمد مات ، خلف بنات .

والذين يبعدون الإسلام عن المعركة على أساس أنها ليست حرباً دينية عقائدية وأنها معركة من أجل وطن لهم إما مغفلون ، أو عملاء وخونة لأمتهم .

فهم يخونون الأمة ويعطلون تجمع القوى لمعركة مصيرية فرضت علينا فرضاً .

ومثلهم كمثل الطبيب الذى يخون المريض الذى يعالجه ، وبدلاً من أن يشخص مرضه الخطير لكي يتأهب لعلاجه ويستعد نفسياً لمقاومته ، يقول له: إن مرضك بسيط ويكفيك جرعة إسبرين لتعود إلى حالتك الطبيعية ، فيصدق المريض ويستكين رغم ما يعانيه وما يحس بداخله من ألم ، حتى يقضى عليه المرض .

إذا أردنا أن ننتصر على اليهود فى المعركة فلا بد أن يعرف العرب والمسلمون حقيقة المعركة مع اليهود بلا غش ولا خداع ليستعدوا لها ، ولتتجمع الطاقات ، ولتنهض الهمم ، وليأخذ كل واحد منهم حذره ، إنها حرب مقدسة ، ولن تكون غير ذلك فى يوم من الأيام إلا عند المخدوعين والمغفلين .

وهنا نتذكر كلمة قالها رئيس وزراء مصر الأسبق **مصطفي خليل** - في ندوة عقدت في إسرائيل ، وشارك فيها بطرس غالي عندما طمأن اليهود إلي أهم في مصر يبعدون الدين أى الإسلام عن المعركة وعن القيادة السياسية يقول :

((أود أن أطمئنكم أننا في مصر نفرق بين الدين والقومية ، ولا نقبل أبداً أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة إلى معتقداتنا الدينية)) .

وما إن أنهى كلمته حتى وقف البروفسور دافيد يرد عليه قائلاً :

((إنكم أيها المصريون أحرار في أن تفصلوا بين الدين والسياسة ، ولكنى أحب أن أقول لكم : إننا في إسرائيل نرفض أن نقول إن اليهودية مجرد دين فقط ، بل إننا نؤكد لكم أن اليهودية هى دين وشعب ووطن)) (١) .

إن اليهود يدخلون معاركهم مع العرب وفي يمينهم التوراة المحرفة، وفي اعتقادهم أن دينهم ليس دينا فقط ، وإنما هو دين وشعب ووطن ، ويحاولون أن تسير أمورهم وشؤونهم الحياتية على مقتضى حكم التوراة .

أما المسلمون فهم وحدهم الذين يراد لهم أن يتخلوا عن دينهم في مواجهة ذلك ويدخلوا المعركة عزلاً من سلاح العقيدة الفعال .

إن من الغفلة والجهل أن يدخل اليهود المعركة وفي أيديهم التوراة ويدخلها العربي المسلم وليس في يمينه القرآن .

تقول صحيفة يديعوت أحرنوت في ١٨/٣/١٩٧٨م :

((إن على وسائل إعلامنا ألا تنسى حقيقة هامة وهى جزء من استراتيجية إسرائيل في حربها مع العرب ، هذه الحقيقة هى أننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن المعركة مع العرب طوال ثلاثين سنة ، ويجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة إلى الأبد ، ولهذا يجب ألا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع استيقاظ الروح الإسلامية بأى شكل

(١) الإسلام والعلمانية للقرضاوى .

وبأي أسلوب ولو اقتضى الأمر الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف والبطش لإخماد أية بادرة ليقظه الروح الإسلامية في المنطقة المحيطة بنا)) (١) .

إن في حديث رسول الله ﷺ بقتال اليهود في آخر الزمان لبشرى عظيمة بعودة الإسلام وانتصاره على كل قوى البغي والعدوان، رغم المؤامرات لإبعاده عن المعركة وإخراجه من حياة المسلمين بالعلمانية وغيرها من المذاهب الهدامة .

يقول الله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء : ٤ - ٨] .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ﴾ أى : أخبرناهم في كتبهم المتقدمة أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويقترن مع هذا الإفساد العلو الكبير ، فإذا جاء العلو الأول المصحوب بالإفساد ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

---

(١) الإسلام في مواجهة العلمانية للقرضاوى .

فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ أى: بعثنا عليكم عباداً لنا أولي قوة وعـدد وعـدة فملكوا دياركم وبلادكم وذهبوا في وسطها وخلالها دون خـوف ﴿ **وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً** ﴾ أى: أن هذا واقع لامحالة .

واليهود قد علوا واستكبروا يوم أن كفروا بمحمد ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وقالوا بعد وقعة بدر : لا يغرنك يا محمد أنك قاتلت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة أما والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحـن الناس .

وهم أفسدوا يوم أن قالوا للمشركين : دينكم أفضل من ديـن محمـد ، وذهبوا إليهم يحرضونهم على المسلمين حتى جمعوهم يوم الأحزاب وتحـالفوا معهم ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، وحاصروا المدينة مع المشـركين ليقضوا على الإسلام والمسلمين بعد أن فشلوا أكثر من مرة في قتل رسول الله ﷺ .

وهم أفسدوا يوم أن حاولوا قتل رسول الله ﷺ بالسم الذى دسوه في شاة وأهدوها إليه ، ومرة بالرحى التى أرادوا أن يلقوها عليه وهو جالس عندهم .

ولما نقضوا العهد وأفسدوا سلط الله عليهم عباده المؤمنين بقيادة رسـول الله ﷺ ، فقتلهم وأذلهم وأخرجهم من المدينة ، حتى كان زمان عمـر بـن الخطاب ﷺ فأخرج بقيتهم من جزيرة العرب بوصية رسول الله: ألا يجتمع في جزيرة العرب دينان .

يقول تعالى :﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ أى : أنكم أيها اليهود تعود لكم الغلبة والنصر ويمددكم ربكم بالأموال والقوة والغلبة وكثرة العدد ، وقد فعل ربنا سبحانه وعـادت لهـم اليوم الغلبة مع العلو والإفساد .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي : إذا جـاءت الإفسـادة الثانية مع العلو والطغيان بعثنا عليكم من يقهركم ويهينكم .

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَـرَّةٍ ﴾ أي: يدخلوا بيت المقدس كما دخلوه في المرة الأولى في زمن عمر بن الخطاب ﷺ.

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ أي : يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُـدْنَا﴾ أي : عسى ربكم أن يصرف عنكم عدوكم ، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الجزاء الحاضر والسنة الماضية بتسليط عبادنا عليكم فأبادوكم .

وقد ذكر ابن كثير أن الذى أبادهم وأهلكهم هو بختنصر ، وذكر أنه قتل منهم الآلاف ، وقتل علماءهم حتى لم يبق من يحفظ التوراة ، وأخذ خلقـاً كثيراً من أبناء الأنبياء ورمى الجيف والقاذورات في بيت المقدس .

إن الذى حدث لليهود في عهد بختنصر يشبه الذى حدث للمسـلمين في عهد التتار لما دمروا المدن والمساجد وخاصة في بغداد ، وقتلوا الخليفة العباسي وقتلوا كثيراً من العلماء ، والتتار لا يقال فيهم : إنهم ﴿عِبَاداً لَنَا ﴾ .

ثم بماذا نسمى حرب رسـول الله ﷺ معهم وقتلهم وإخـراجهم مـن المدينة ؟ هل ذلك يخرج عن نطاق وعد الله عز وجل القاضى بتسليط عبـاده عليهم كلما أفسدوا الأرض ؟

وهل ما فعله اليهود فى المدينة – والذى ذكرنا بعضه – لا يدخل فى دائرة الإفساد التى ذكرها الله تعالى فى صدر سورة الإسراء ؟

فإذا كان حـرب رسول الله لهـم فى المدينة وإخراجهم يدخل فى دائرة ﴿ بعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا ﴾ ، وإذا كان ما فعله اليهود فى المدينة يدخل فى دائرة الإفساد المذكورة فى سورة الإسراء ، فبماذا نسمى اليوم ما يفعله اليهود لا فى فلسطين وحدها بل فى العالم كله من إفساد وخراب وإثارة للحروب وتدمير الأخلاق ؟ هل يخرج ذلك على ما قصه الله تعالى فى صدر سورة الإسراء ، أم أن فيه زيادة على جميع إفسادات اليهود السابقة على نـزول القـرآن والـتى جاءت بعده ؟

ولعل اختلاف السلف فى المسلط على اليهود يرجع إلى أن اليهود كـانوا في زمنهم أذل الأمم وكانوا يعيشون في ضعف ومسـكنة بعـد إخـراجهم وهزيمتهم من رسول الله ﷺ ، ولم يخطر ببال أحد من السلف أن قلـة مـن اليهود سوف تتجمع في فلسطين وتهزم المسلمين مع كثرتهم واتساع بلادهم ، وتحتل المسجد الأقصى ، فالذى حدث من علو وغلبة اليهود مع إفسـادهم للعالم كله لم يتصوره أحد ، ولم يكن فى حسبانهم .

ولعل هذا هو العذر في القول بأنه بختنصر مما هو بعيد عن روح الـــنص وظاهره .

فإن كلمة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ اللام للمســـتقبل أى : ســـيكون الإفســـاد في المستقبل وكذلك ﴿ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ وعلو اليهود وإفسادهم كان بعد نزول القرآن، فإن سورة الإسراء مكية ، وإفساد اليهود الأول وعلوهم كان في المدينـــة في عهد رسول الله ﷺ فحاربهم رسول الله وصحابته وهزموهم وأخرجوهم من المدينة ثم من الجزيرة بعد ذلك .

كذلك فإن قـــوله تعالى عن المسلطين علـــى اليهود ووصفه لهم بـــأنهم ﴿ عِبَاداً لَنَا﴾ بهذه الخصوصية لا ينطبق على بختنصر المجوسى الكافر الذى قال عنه ابن كثير أنه قتل الصالحين فى القدس الشريف ، إن الله تعالى لا ينســـب إلى ذاته المقدسة بختنصر عابد النار فيقول فيـــه وفي صفته ﴿ عِبَـــاداً لَنَـــا ﴾ خاصة أن صدر الآيات يقول تعالى فيها : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَـــيْلاً﴾ على رسول الله ﷺ .

ويقول تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ .

والحديث الذى رواه مسلم في قتال اليهود يقول :

" يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى ورائي فاقتله " .

كل هذا يدل على أن المسلط على اليهود في المرتين مسلمون عبيد لله .

ثم إن دخول المسجد مرتين في قولة تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ لم يكن هذا إلا للمسلمين في زمن عمر بن الخطاب ﷺ .

حتى أن الرهبان والأحبار وجدوا صفة عمر وهيئته في كتبهم ، ورفضوا أن يسلموا مفاتيح القدس إلا له .

ثم تكون الثانية عند قتال اليهود فى فلسطين ، يقول ﷺ : " أنتم فى شرق النهر (أى نهر الأردن) وهم فى غربه ". وهم اليوم فى غرب نهر الأردن ونحن فى شرقه ، وصدق الرسول الكريم .

وفي هذا إشارة إلى أن الأقصى لن يحرر بالمفاوضات أو ما يسمى بالسلام وإنما سيحرر بحد السيف .

وما تصلب اليهود وقولهم : إن القدس عاصمتهم الأبدية وأنها غير قابلة للتفاوض ما هو إلا استدراج من الله تعالى لهم ، إن تاريخ اليهود مسجل في الكتاب والسنة من بدايته إلى نهايته ، لأن الله تعالى يعلم أن للمسلمين معهم معارك مصيرية حتى يقاتل بقيتهم الدجال الذى أعوانه وجنوده من اليهود .

ولعل حديث رسول الله ﷺ الصحيح بقتالهم في آخر الزمان وكذلك ما قصه الله تعالى في صدر سورة الإسراء وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أى: إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى تسليط عبادنا عليكم لبشرى بعودة الإسلام قوياً منتصراً بإذن الله .

وهم اليوم عادوا إلى الإفساد والعلو والطغيان بصورة لم تحدث في التاريخ كله .

وإن وعد الله سوف يتحقق إن شاء الله بفتح القدس مرة أخرى ، ودخول المسجد للمرة الثانية ،وهذه بشارة للمسلمين بأن الإسلام عائد ومنصور إن شاء الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

* * *

بعد أن انتهينا من كتابة هذا الجزء وقع فى يدى العدد ٣٤٦ من جريدة (الوعى الإسلامى) التى تصدر فى الكويت بتاريخ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ بقلم الأستاذ أمين محمد عثمان نقلاً عن تفسير الشيخ عبد الكريم الخطيب (التفسير القرآنى للقرآن) ، وقد رأيت إثبات هذا التفسير فى هذا الجزء من هذا البحث زيادة فى الفائدة والتوضيح لهذه القضية المصيرية ، ولأن أعداء الله من اليهود والعلمانيين وغيرهم يريدون بث روح اليأس والقنوط فى هذه الأمة حتى أنهم ليروجون لقوة اليهود وأسلحتهم وعدتهم وجيشهم الذى لا يقهر ، وأنه لا فائدة من المقاومة والصمود ، ويحدث ذلك فى صحف ومجلات تصدر فى بلاد المسلمين وبأموال المسلمين ، ولا يعلمون أن الأمر مسطر فى كتاب الله وليس بعد العلو والإفساد إلا الخزى والهوان والخسران .

جاء فى المصدر السابق ما يلى : إذا أعدنا النظر إلى (بنى إسرائيل) بعد الأسر البابلى ... لم نجد لهم دولة ظاهرة أو ملكاً قائماً .. وإنما هم دويلات

ممزقة ... متقاتلة فيما بينها ... تخرج من حكم (البابليين) لتقع تحت حكم الفرس ... فى سنة ٥٨١ ق.م ... ثم تحت حكم الرومان ... إلى أن جاء الفتح الإسلامى الذى أدخل (بيت المقدس) فى دولته ... فأصبح (المسجد الأقصى) من مساجد الإسلام ... ليس لبنى إسرائيل شأن به منذ ذلك الوقت إلى منتصف القرن العشرين ... وإذن فهناك المرة الثانية وهى التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى :﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء : ٧] . هل جاء وعد الآخرة ... أى المرة الثانية ؟ وإذا لم يكن قد جاء فمتى يجىء وما الإرهاصات الدالة عليه ؟

والجواب على هذا :

أولاً : أن الوعد - وعد الآخرة - كان إلى نزول القرآن غير واقع ، وأنه سيقع فى المستقبل القريب أو البعيد ... والدليل على ذلك ما يحدث به القرآن الكريم ... فى هذا المقام .

فقد تحدث القرآن الكريم عن مجيء المرة الأولى هكذا : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء :٥] وتحدث عن مجىء المرة الثانية هكذا : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء : ٧] .

فالآيتان تتحدثان عن المستقبل الذى يدل عليه الشرط (إذا)، وهذا يعنى أن المرتين سواء فى تعليقهما بالمستقبل وقت نزول القرآن ... الأمر الذى يجعل القول بأن إحداهما قد وقعت والأخرى لم تقع قولاً لا حجة عليه ولا مبرر له .

ولكن الذى ينظر فى الآيتين يجد أن الشرط الذى يعلق الفعلين بالمستقبل هو منظور فيه إلى ما قضاه الله فى كتابه ... وجعله قدراً مقدوراً على بنى إسرائيل فى وقوع هاتين المرتين من الإفساد ، وعلى هذا يكون وقوع الأحداث المسطورة فى كتاب الله كلها لم تكن وقعت حين قضى الله بها وأودعها خزائن علمه .

وعند النظر فى الآيتين الكريمتين نجد أن النظم القرآنى قد خالف بينهما ، فجعل ما وقع منهما قبل نزول القرآن معبراً عنه بلفظ الماضى : ﴿ **بَعَثْنَا** ﴾ ... ﴿ **وجَاسُوا** ﴾ ، على حين جعل المرة التى لم تقع بلفظ المستقبل : ﴿ **لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ ... ﴿ **وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ** ﴾ ... ﴿ **وَلِيُتَبِّرُوا** ﴾ .

ولو تساوت المرتان فى الوقوع أو عدم الوقوع عند نزول القرآن لم يكن لاختلاف النظم فيها سبب ظاهر ... وهذا أبعد ما يكون عن بلاغة القرآن وإعجازه ... حيث لا تجىء كلمة أو حرف فيه ... إلا ومعها ما لا حصر له من أسرار .

ثانياً : إذا تقرر أن المرة الثانية لم تجئ حتى نزول القرآن الكريم فهل وقعت بعد هذا ... أم أنها لا تزال معلقة بالمستقبل لم تقع بعد ؟

والقرآن الكريم هـو دليلنا فى الإجابة على هذا السؤال ... ففى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ .

فى هـذه الآية نجد حديثاً عن (المسجد) ... والمسجد ـ كما هو معروف ـ معلم من معالم الإسلام ... وسمة من سمات بيوت الله التى يتعبد فيها المسلمون ... إذ كان السجود أبرز عمل من أعمال المسلمين فى الصلاة ... ولهذا فإن الاسم الذى يعرف به (المسجد الأقصى) هو (بيت المقدس) حتى إذا أسرى الله بنبيه (محمد) ﷺ أسماه سبحانه (المسجد الأقصى) وجعله بهذا الاسم (القبلة الأولى) للمسلمين ... كما جعله بهذه التسمية مسجداً لهم يعبدون الله فيه ثم كان الوصف الذى يعرف به المسلمون فى المجتمع الإنسانى هو سمة السجود فى وجوههم : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فذكر (بيت المقدس) باسم (المسجد) يشير إشارة واضحة إلى أن المرة الثانية التى يقع فيها من بنى إسرائيل هذا الإفساد إنما تكون فى العهد الإسلامى ... وفى الوقت الذى يكون فيه (بيت المقدس) مسجداً للمسلمين على خلاف ما كان عليه من قبل ... حيث لم تشر الآية الأولى إلى (المسجد) من بعيد أو قريب ... بل جاءت الآية هكذا : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ أى : تنقلوا كما يشاؤون بين الديار ... وهذا يعنى أن العدو الذى ابتلاهم الله به ... كان متمكناً بحيث يمشى فى ديارهم ويتخلل طرقاتهم دون أن يخشى أحداً .

ونسأل مرة أخرى : هل وقعت المرة الثانية ؟ وهل جاء وعد الآخرة قبل يومنا هذا ؟ والجواب هنا نأخذه أيضاً من القرآن ومن أحداث التاريخ .

وننظر مرة أخرى فى الآية : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ . فهناك حقائق تقدرها الآية الكريمة ... وهى : أن الذين يتسلطون على بنى إسرائيل فى هذه المرة سيدخلون (**المسجد الأقصى**) كما دخلوه أول مرة ... وهذا يعنى أموراً :

أ – أن الذين يدخلون المسجد الأقصى كما دخلوا أول مرة ... قد كان لهم دخول من قبل ... وأنهم إنما يفعلون فى هذه المرة ما فعلوه فى المرة السابقة.

ب – ودخول المسلمين المسجد الأقصى أول مرة كان فى خلافة (عمر ابن الخطاب) ﷺ ، وقد ظل فى أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل فى العصر الحالي ... نعم : خرج المسجد الأقصى من يد المسلمين إلى يد الصليبيين ثم أعيد مرة أخرى على يد (صلاح الدين الأيوبى) ولم يكن لبنى إسرائيل حساب أو تقدير فى ذلك الأمر .

جـ – ودخول المسلمين إلى (المسجد الأقصى) وانتزاعه من أيدى الصليبيين ليس له شأن بالدخول الذى سيدخله المسلمون ... بعد أن ينتزعوا هذا المسجد من يد (بنى إسرائيل) ... لأن بنى إسرائيل لم يدخلوا المسجد ولم يستولوا عليه منذ الفتح الإسلامى حتى وقع فى أيديهم هذه الأيام .

د - فهذه إرهاصة من إرهاصات المرة الثانية أو (وعد الآخــرة) ... وهى أن يكون (المسجد الأقصى) فى يد بنى إسرائيل ... ثم يجيء إليهم من يخرجهم منه ، وينتزعه من أيديهم ... وهم أولئك الذين كان (المســجد) مسجدهم (الذين دخلوه أول مرة) وليس المسجد إلا مسجد المسلمين ... وليس الذى يدخله للمرة الثانية ، وينتزعه من اليهود إلا المسلمين .

هـ - الإرهاصة الثانية : هى حالــة اليهود أنفسهم ... وهى أن يكونوا على الصفة التى وصفهم الله بها ... حين يفســدون فى الأرض .. ويعلــون علــواً كبيراً ... وحين يدخل عليهم أصحاب المسجد ... كما دخلوا أول مرة ... ليسوؤوا وجــوههم أى يلبسوهم الخزى والسوء ... وقد اختصت الوجوه بهذا ... لأنها الصفحة التى ترتسم عليها أحوال الإنسان كلها ... وما يمسه من خير أو شر .

إن الذى ينظر فى واقع بنى إسرائيل اليوم يجد :

أولاً : أنهم من عهد (سليمان) عليه السلام لم تقم لهم دولة ... بعــد الدولة التى خربها (بختنصر) ملك (بابل) حتى قامت لهم دولــة فى هــذه الأيام هى المعروفة باسم (إسرائيل) والتى تدعمها وتساندها قوى كثيرة من قوى البغى والعدوان التى تكيد للإسلام وتتربص به .

ثانيــاً : أن هذه الدولة التى أقامها بنو إسرائيل هذه الأيام ... دولة ولدت من أحشاءِ الظلام ... تحمل كل ما عرفت الإنسانية من أدوات الشــر ... والبغى والعدوان ... فقد ملكت بكيدها ومكرها كثيراً من الوسائل الخبيثــة

التى مكنتها من تلك القوة ... وأقامت بها هذه الدولة ... فالمال إنما هو عصارات تلك الدماء التى امتصها اليهود من الأمم والشعوب فى شتى أقطار الأرض بما أشعلوا من حروب ... وبما اشتروا من ضمائر وذمم !

إلى أن يقول :

بقى هنا أمران نود أن نشير إليهما فى إيجاز :

الأمر الأول : فهو أن هذه الدولة قامت تحت اسم (إسرائيل) ولم تقم تحت اسم (اليهود) أو دولة (يهوذا) .

وهذا يجعل لقول الله تعالى : ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ**﴾ متوجهاً إلى تلك الدولة القائمة تحت اسم (إسرائيل).

الأمر الذى يجعل من العسير أن تدخل تحت حكم هذه الآية لو أنها اتخذت أى اسم آخر غير هذا الاسم ... وهذا إعجاز من إعجاز القرآن .

الأمر الثانى : فهو ما جاء فى قوله تعالى فى آخر هذه السورة : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً . فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً** ﴾ [الإسراء : ١٠١ــ ١٠٤] .

ففى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ إشـــارة إلى أمرين :

أولهمـا : أن سكنى بنى إسرائيل للأرض لن تكون إلا سكنى ذليلة مهينة لا يرتفعون فيها عن الأرض ... ولا يستعلون بآدميتهم عن الدواب التى تدب عليها فهم أبداً لاصقون بهذه الأرض ... يغوصون فى طينــــها ووحلـــها إلى أذقانهم ... بحثاً عما تعطى الأرض ، أما ماوراء هذا من مطالب الروح فــلا حظ لهم فيه ولا شغل لهم به .

ثانيهما : أنهم سيشردون فى الأرض كلها ... طولها وعرضها ... إذ كل همهم من سكنى الأرض هو البحث عن كل مرعى فيها ... فهم يتبعون مواقع المرعى حيث كانت ... وهذا ما تحدث عنه حياة اليهود حيث هم فى كـــل صقع من أصقاع الأرض .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفــاً ﴾ إشارة إلى مـــا جاء فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ .

فبنو إسرائيل الذين جاؤوا لوعد الآخرة ، واجتمعوا اليوم فى (**فلسطين**) وأقاموا الدولة الواقعة تحت حكم الله الذى قضى به عليهم ، يوم يجيء ﴿وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ بنو إسرائيل هؤلاء قد جاؤوا من كل أفق من آفاق الأرض مسوقين إلى حتفهم ... مدعوين إلى قدرهم المقدور فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْـــدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ أى : جمعناكم من كل جهة ، فاللفيف من النـــاس :

الجماعة التى تجتمع فى الأسواق والأسفار ثم ينفض السوق .. ويتفرق السفر ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] انتهي .

* * *

سئل الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى عن رؤيته الرافضة للواقع فى الوقت الذى تقيم فيه - أو بدأت - إسرائيل علاقات مع أغلب الدول العربية ؟

فقال : نعم وما زلت أرى أملاً كبيراً فى الصحوة الإسلامية وعندنا بشائر كبيرة فى هذا ... وما فيه العدو اليوم هو استثناء ... قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران : ١٠٢] و(إلا) تعنى الاستثناء ، والاستثناء لا يبقى أبد الدهر فهو فترة من الزمن ثم يعود الأصل كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف : ١٦٧]،واليهود يعرفون أن ذلك لن يدوم لهم ، وأن دولتهم زائلة، وقد ناقش بعض العرب وبعض المسلمين (**موشيه دايان**) فى هذا الأمر ، وقالوا : عندنا بشائر بأننا سننتصر عليكم فقال : (ونحن عندنا أيضاً أشياء بأن هذا لن يدوم لنا ، ولكن ليس هذا الجيل منكم سينتصر علينا ...) (١) .

---

(١) مجلة المجتمع العدد ١٢٠٢ - ١٧محرم ١٤١٧هـ .

وحدثني من أثق به أن شاباً مسلماً من غزة أمسكته الشرطة الإسرائيلية وأثناء التحقيق معه لاحظ الضابط المحقق ثبات الشاب وعدم خوفه أو اضطرابه ، فأراد المحقق أن يعرف عن مصدر هذه الثقة والشجاعة ، فسأل المحقق الشاب عن سبب ثقته وعدم خوفه ، فقال الشاب : إن مصدر ثقتي هو أننا واثقون من أننا سنهزمكم وننتصر عليكم ، فقال له المحقق :وما مصدر هذا اليقين ؟

قال الشاب : قول رسولنا ﷺ : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، وحتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودي ورائي فاقتله ".

قال المحقق : لستم أنتم المسلمين الذين يتكلم لهم الشجر والحجر .

وكأن المحقق الخبيث عنده علم بالحديث وبمعركة آخر الزمان بين المسلمين واليهود ، ولكنه يعرف كذلك أن صفة (يا مسلم يا عبد الله) لم تتحقق في المسلمين الموجودين ، ولذلك لم يحن ميعاد الملحمة وتكلم الشجر والحجر .

ولقد قرأت لأحد زعماء اليهود قوله : إن دولتنا لن تعيش أكثر من مائة عام .

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والله أعلم .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة